تحفة الألباب ونخبة الإعجاب

للغرناطي
أبي حامد محمد بن عبد الرحيم الأندلسي
(ت ٥٦٥ هـ)

يُنشر كاملاً لأول مرة

تحقيق
الدكتور علي عمر

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

تحفة الألباب ونخبة الإعجاب

للغرناطى

أبى حامد محمد بن عبد الرحيم الأندلسى

(ت ٥٦٥ هـ)

يُنشر كاملاً لأول مرة

تحقيق

الدكتور على عمر

بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعتى

المنيا والإمام بالرياض

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

رقم الإيداع	١٦٥٨٢ / ٢٠٠٢
I.S.B.N الترقيم الدولي	977 - 341 - 079 -X

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

ص . ب ٢١ توزيع الظاهر - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

مؤلف الكتاب هو محمد بن عبد الرحيم بن سليمان، أبو عبد الله وأبو حامد ابن أبي الربيع المازني القيسي الأندلسي الغرناطي، من علماء تخطيط البلدان.

ولد بغرناطة سنة ٤٧٣هـ، ورحل إلى المشرق، فمات في دمشق سنة ٥٦٥هـ.

من كتبه: «تحفة الألباب ونخبة الإعجاب» وهو هذا الكتاب و«نخبة الأذهان» و«عجائب المخلوقات».

وكتابه الذي نقدم له اليوم هو في صفة الدنيا وسكانها وصفة عجائب البلدان، وغرائب البنيان، والبحار، وعجائب حيواناتها وما يخرج منها، وما في جزائرها من النفط، وجمع فيه ما رآه في أسفاره من العجائب.

وقد ظل الغرناطي لفترات طويلة تجاوزت عصره من ألمع وجوه الجغرافيين، وقد تجلى ذلك حين اعتمدت عليه بعض المؤلفات على كتاباته إلى حد بعيد.

فاستعان به في كتاباته القزويني (ت ٦٨٢ هـ) في كتابيه عجائب المخلوقات، وآثار البلاد وأخبار العباد، وابن الوردي (ت ٧٤٩ هـ) في كتابه خريدة العجائب وفريدة الغرائب، والدميري (ت ٨٠٨ هـ) في كتابه حياة الحيوان الكبرى، والقلقشندي (ت ٨٢١ هـ) في كتابه صبح الأعشى. والمقريزي (ت ٨٤٥ هـ) في كتابه المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، والأبشيهي (ت ٨٥٢هـ) في كتابه المستطرف من كل فن مستظرف، وابن إياس (ت ٩٣٠هـ) في كتابه نشق الأزهار في عجائب الأمصار، والمقري (ت ١٠٤١ هـ) في كتابه نفح الطيب وغير هؤلاء.

هذا وقد استندت في تحقيق نص الغرناطي إلى:

النسخة التي نشرت في المجلة الآسيوية سنة ١٩٢٥م.

كما استعنت بمخطوطة دار الكتب المصرية برقم ١١ ش تاريخ، تمت كتابتها سنة ١١٧، تقع في ٥٤ ورقة، كتبت بخط مغربي.

هذا ولم أشر إلى الخطأ في إحدى النسختين والصواب في الأخرى، أو النقص في إحداهما والزيادة في الأخرى بل اتخذت النسختين أصلاً يكمل بعضهما بعضًا ويصوب بعضهما بعضًا.

وكان حرصي على سلامة النص أكثر من حرصي على التعريف بالأعلام والبلاد والإسراف في الشرح والتعليق، إذ كان ذلك أهم ما يحتاج إليه العلماء والباحثون عند الرجوع إلى الكتب المحققة.

كما قمت في آخر الكتاب بعمل الفهارس المتنوعة التي تقرب نفعه، وتُدْنِي جَنَاه.

القاهرة في رمضان ١٤٢٢هـ

نوفمبر ٢٠٠١ م

د. علي عمر

الصفحة الأخيرة من المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أبدع العالم علمًا على توحيده، فشهد كل موجود بوجوده، ودلت كل نعمة على كرمه وجوده، وسخر السموات بأصناف جنوده، وأمرهم بتسبيحه وتقديسه وتمجيده، وأسكن الأرض مَنْ شاء من عباده، وقسمهم بين شقيه وسعيده، وغويه ورشيده، وجعل المغرب قبلة المشرق في ركوعه وسجوده، فكل محدث مقهور بقدرة معبوده، وأظهر في الآفاق من عجائب المخلوقات ما تكلُّ الأوهام عن إحصائه وتقديره، وتكييفه وتحديده، ووكَّل بالتماسه من خصَّه بتأييده وتسديده.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من عرف إلهيته ووحدانيته وربوبيته علم يقين دون تقليد.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أفضل أنبيائه ورسله وأوليائه وشهوده، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وذريته وأصحابه وأنصاره أئمة دينه وصناديده، صلاة دائمة بدوامه باقية ببقائه خالدة بخلوده وسلَّم وكرَّم وشرَّف وعظَّم عدد معلوماتك ومداد كلماتك كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

وبعد، فإن الله تعالى جلت قدرته، وشملت رحمته قد منّ على جميع العباد نعمًا ما لها من نفاد، وخص منهم بالفضائل من اصطفاه، وجعلهم مصابيح دينه ودنياه، وأجرى على أيديهم صنوف الخيرات، وأكرمهم بأنواع الكرامات، ليعين بهم الضعيف، ويغيث بهم اللهيف، ويعلم بهم الجاهل، وينبه بهم الخامل، ويغني بهم الفقير، ويكبِّر بهم الصغير، ويعضِّد بهم الذليل ويكثر بهم القليل، وينصر بهم المظلوم، ويقهر بهم الظلوم، ويتم بهم النعم، ويصرف بهم النقم ويظهر بهم الكرم، وينقذ بهم من العذاب الأليم، ويقود بهم إلى جنات النعيم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وقد أمَرَكَ الله سبحانه وتعالى أيها الإنسان بشكر من أجرى إحسانه على يديه إليك بقوله عز وجل: ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ (سورة لقمان: ١٤) وجميع الإحسان في الدنيا

والآخرة من الله تعالى، ولذلك قال ﷺ : «لا يشكرُ الله من لا يشكر الناس»[١] وقال ﷺ : «أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة»[٢] قيل فى معنى هذا الخبر : إنّ الله عزّ وجلّ يشفّع المحسن يوم القيامة فى كل من أحسن إليه، ليتم نعمته عليه ويشهد لصحة هذا التأويل أن الله عز وجل، أنعم على العالم بمحمد ﷺ نبيه سيد المرسلين، لقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء : ١٠٧) وجعل إليه الشفاعة يوم الدين فى المذنبين من الموحدين والحمد لله رب العالمين.

ومنذ اغتربت عن المغرب الأقصى، شاهدت من الأئمة الكرام ما لا يعد ولا يحصى، وأولانى الله عز وجل على أيديهم من أنواع النعم والإحسان، ما لا يقدر على إحصائها لسان إنسان، جازاهم عنى الله أفضل الجزاء، إنه سميع الدعاء، فعال لما يشاء.

ولما وصلت إلى الموصل سنة سبع وخمسين وخمسمائة ونزلت فى جناب الشيخ الإمام الزاهد الماجد، معين الدين، ومحيى سنن سيد المرسلين، وخاتم النبيين، بتاليفه وسيلة المتعبدين، أبى حفص عمر بن محمد متوجهًا بتاليفه رضى الله تعالى وشفاعة نبيه المصطفى، محمد ﷺ : [كامل]:

جمع الوسيلة مشبه الفاروق
وسميّه فسما على العيّوق
باهى بها فلك البروج وأصبحت
كالشمس لا تخفى بكلّ طريق
حوت النبوة والشريعة كلها
وأصول علم الفقه بالتحقيق
الله أيده على تأليفها
وحباه بالإرشاد والتوفيق
ختمت تواليف العلوم بها كما
ختم النبوة أحمد الصديق

(١) أخرجه صاحب الكنز برقم ٦٤٤٠.
(٢) أخرجه صاحب الكنز برقم ١٦٠٩٦.

فشهدت من كرمه وإكرامه، وتواضعه وإنعامه لجميع المسلمين، وإطعامه للقاصدين منهم والقاطنين، وتقشُّفه في لباسه، على زى الصحابة والتابعين، والاقتداء بالأئمة الصالحين العالمين العاملين، كأنه ملك في زيّ مسكين، فهو في هذا العصر معدوم القرين، جازاه الله عني وعن جميع المؤمنين، أفضل جزاء المحسنين.

ولم يزل أيده الله وأبقاه، ومن المكاره وقاه، يحثّني كلما كنت ألقاه، أن أجمع ما رأيته في الأسفار، من عجائب البلدان والبحار وما صح عندي من نقلة الأخبار الثقات الأخيار، فأجبته إلى ذلك، وإن لم أكن هنالك، لعزوب الفطن، وضيق العطن، وبعد الأهل والوطن، وتشتت الأحوال، وركوب الأهوال، وطول الاغتراب، والبعد عن الأحباب، ومساورة العذاب، أسأل الكريم المجيب، أن يمنّ عليّ بالفرج القريب، ويرحم الله عبدًا قال آمين.

ورأيت أن أسمّي هذا المجموع «تحفة الألباب ونخبة الإعجاب» وأرتبه على مقدمة وأربعة أبواب.

فالمقدمة للبيان والتمهيد، والأبواب لتتمة المقصود.

الباب الأول: في صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانّها

الباب الثاني: في صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان

الباب الثالث: في صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار وما في جزائرها من أنواع النفط والنار

الباب الرابع: في صفات الحفائر، والقبور، وما تضمنت من العظام إلى يوم النشور، ليكون ذلك سببًا للاعتبار، وداعيًا إلى الفرار، من دار البوار، إلى دار القرار، جعلنا الله وإياكم من الفائزين، وأدخلنا برحمته في عباده الصالحين.

المقدمـــــة

اعلموا رحمكم الله أن الله تعـالي فرق بين العالمين في العقول، ومنحـهم منه ما شاء من كثير وقليل، وكما فضّل الناس بعضهم علي بعض في الرزق وسعة المال، كذلك فضّل بعضهم عـلى بعض في العقل، فعقـول الملائكة والأنبياء أكـثر من عقول جمـيع العلماء، وعقـول العلماء أكثـر من عقول جـميع العوام في الدنيـا، وعقول العـوام أكثر من عـقول النساء، وعـقول النسـاء أكثر من عـقول الصبـيان، وبقدر هذا التـفاوت يقع الإنكار لأكـثر الحقائق من أكثـر الناس، لنقصان العقل، لأن الذي يعرف الجائز والمـستحيل يعلم أنّ كلّ مقـدور بالإضـافة إلي قدرة الله تـعالي قليل فالعـاقل إذا سمع عجبًـا جائزًا استـحسنه، ولم يكذب قائله ولا مجنّه، والجاهل إذا سمع ما لم يشاهد قطع بتكذيبه وتزييف ناقله، وذلك لقلة بضاعـة عقله، وضيق باع فـضله، وقد وصف الله تعالي الجـهّال بعدم العقـول بقوله تعالي: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ (سورة الفرقان: ٤٤) وقد أودع الله تعالي من عجائب المصنوعات في الآفاق والسموات كما قال تعالي: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (سورة يوسف: ١٠٥) وقد ندب إلي النظر في عجائب الدنيا بقوله تعالي: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ (سورة العنكبوت: ٢٠) وقد قيل: [كامل]:

في الأرض آيات فـــلا تك منـكرًا
فـعـجـائب الأشـيـاء مـن آياته

[متقارب]:
وفـى كل شـىء لـه شـــــاهـد
دلـيـل عـلى أنـه واحـــــــدُ

وقبل هذا البيت:

أيا عـــجبـــا كـيف يعـصي الإله
وكـــيف يجـــحـده الجـاحـدُ

ومن شهد حجر المغناطيس وجذبه للحديد وكـذلك حجر الماس الذي يعجز عن كسره

الحديد ويكسره الرصاص ويثقب اليواقيت والفولاذ ولا يقدر على ثقب الرصاص يعلم أن الذى أودعه هذا السر قادر على كل شيء[1].

وكذلك خرزة الباه، وخرزة الفتح، قد أودع الله عز وجل فيهما خواصا تدل على حكمة الله تعالى، فلا تكن مكذبًا بما لا تعلم وجه حكمته، فإن الله عز وجل قال: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (سورة يونس: ٣٩) فهذا ما أردنا تقديمه خشية أن يسارع الإنسان إلى تكذيب ما لم يشاهد فيلحقه اللم لعدم الفهم، والله الموفق للصواب.

---

(١) انظر فى ذلك: عجائب المخلوقات ج١ ص ٢٣٠- ٢٣٤.

الباب الأول

فى صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها

اعلم وفقك الله أن الدنيا عبارة عما فى فلك القمر من الهواء والبحار والأرض وما عليها وما تحتها وما يحيط بها والمعمورة فيها يقال مسيرة مائة عام من ناحية الشمال، مع ما يقاربه من المشرق والمغرب.

وما سواه من الأرض، ليس فيه آدمى لقرب الشمس وميلها على ما سوى الشمال وشدة سلطانها على ما سوى الشمال، فإن الشمال بارد يابس، ومغربه بارد رطب، ومشرقه حار يابس، فقابلت حرارة المشرق ببرودة الشمال، وبرودة المغرب ورطوبته، فكان أعدل مواضع الأرض للحيوانات والنبات، فأسكن الله عز وجل فيه بنى آدم رحمة منه وفضلاً.

ثم جعل يأجوج ومأجوج وهما من أولاد آدم من ولد يافث بن نوح عليه السلام، وجعل مواضعهم ومساكنهم فى آخر بلاد الشمال أرضًا متصلة ببحر الظلمات، طولها ثمانون سنة.

وبين ولد سام وبينهم سد ذى القرنين الذى ذكره الله تعالى فى القرآن بين الصدفين، بناه من الحديد والنحاس، ويأجوج ومأجوج أمم لا يعلمهم إلا الله تعالى، كثيرة كأمثال البهائم، لهم قوة وبأس، يرمون بالنُشَّاب، ولهم عدوان كعدوان السباع الضارية، ولا دين لهم فيما يقال، والله أعلم.

وقد بقى من المائة سنة المعمورة عشرون سنة، منها أربع عشرة لأنواع السودان وبلادهم مما يلى المغرب الأعلى المتصل بطنجة ممتدًا على بحر الظلمات[١]، وقد أسلم من ملوكهم فيما يقال خمس قبائل، أقربهم غانة، ينبت فى رمالهم الذهب التبر الغاية وهو

(١) يطلق الجغرافيون العرب اسم بحر الظلمات على المحيط الأطلسى بينما يطلقون اسم بحر المحيط على مختلف المحيطات التى تحيط بالأرض من المشرق والشمال.

كثير عندهم[١]، يحمل التجار إليهم حجارة الملح على الجمال من الملح المعدني، فيخرجون من بلدة يقال لها سجلماسة آخر بلاد المغرب الأعلى، فيمشون في رمال كالبحار، ويكون معهم الأدلاء يهتدون بالنجوم وبالجبال في القفار ويحملون معهم الزاد لستة شهور، فإذا وصلوا إلى غانة باعوا الملح وزنا بوزن الذهب، وربما باعوه وزنا بوزنين أو أكثر على قدر كثرة التجار وقلتهم.

وأهل غانة أحسن السودان سيرة وأجملهم صورا، سبط الشعور، فيهم عقول وفهم، ويحجون إلى مكة.

وأما قناوة وقوقو وملى وتكرور وغنَاس، فقوم لهم بأس وليس في أرضهم بركة ولا خير في أرضهم، ولا دين لهم، ولا عقول.

وأشرهم قوقو، قصار الأعناق، فطس الأنوف، حمر العيون، كأن شعورهم حب الفلفل، وروائحهم كريهة كالقرون المحرقة، يرمون بنبل مسمومة بدماء حيَّات صفر، لا تلبث ساعة واحدة حتى يسقط لحم من أصابه ذلك السهم عن عظمه ولو كان فيلا أو غيره من الحيوانات.

والأفاعي وجميع أصناف الحيات عندهم كالسمك يأكلونها، لا يبالون بسموم الأفاعي ولا الثعابين، إلا بالحية الصفراء التي في بلادهم، فإنهم يتَّقونها ويأخذون دمها لسهامهم وقسيِّهم، صغار قصار، رأيتهم في بلاد المغرب ورأيت قسيهم وأوتارهم من لحاء الشجر الذي في بلادهم، ونبلهم قصار كل سهم شبر ونصالهم شوك شجر كالحديد في القوة، قد شدوه في نبلهم بلحاء شجر، يصيبون الحدق.

وهم شر نوع في السودان، وسائر السودان يتمتع بهم في الخدمة والعمل إلا قوقو فلا خير فيهم إلا في الحرب، ولهم ألواح صغار مثقبة بثقب غير نافذة يصفرون في تلك الثقب فتصوِّت بأصوات عجيبة، فيخرج إلى ذلك الصوت جميع أنواع الحيات والأفاعي والثعابين

---

(١) فكرة كون الذهب نباتا ينبت في أرض السودان فكرة شائعة بين عدد من الجغرافيين، ومن بين المتقدمين على أبي حامد في هذه النظرية ابن الفقيه (أوائل القرن الرابع الهجري) الذي يقول في هذا السياق: «وبلاد غانة ينبت فيها الذهب نباتا في الرمل كما ينبت الجزر، ويقطف عند بزوغ الشمس (ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ص ٨٧).

فيأخذونها ويأكلونها، وفيهم من يشدها على وسطه كما يشد الحزام، ومنهم من يشحمم بالثعبان الطويل ويدخل السوق على غفلة فيكشف ثوبه ويرمي على الناس أنواع الثعابين والحيات فيعطوه شيئاً حتى يخرج وإن لم يعطوه ألقى في دكاكينهم من تلك الحيات.

ويجيء من بلاد السودان أنواع من جلود الماعز مدبوغة دباغة عجيبة، الجلد الواحد يكون غليظا كبيراً ليناً محبباً في لون البنفسج إلى السواد يكون الجلد الواحد عشرين مناً، يتخذ منه الخفاف للملوك، ولا يبل بالماء ولا يبلى ولا يفنى مع لينه وتعومته وطيب رائحته، يباع الجلد الواحد بعشرة دنانير، تبلى خيوط الخف ولا يبلى هو ولا يتقطع فيغسلونه في الحمّام بالماء الحار فيعود كأنه جديد، يتوارثه صاحبه عن أبيه عن جده وهو من عجائب الدنيا.

وعندهم حيوان يقال له اللمط مثل الثور الكبير، له قرنان كالرماح تطول بطول بدنه، ممدودة على ظهره، إذا طعن بها الحيوان أهلكه في الحال، عريض العنق، يتخذ من جلدة تراس يقال لها الدرق اللمطية[١] مضافة إلى ذلك الحيوان، يكون ثلاثة أذرع، وهي خفيفة لينة لا ينفذها النشّاب، ولا يؤثر فيها السيف تكون بيضاء كالقراطيس، وهي من أحسن التراس مبسوطة كالرغيف تستر الفارس وفرسه.

ومن أنواع السودان زيلع[٢]، وهم أعفّ أهل السودان، مسلمون يصومون ويصلون ويحجون إلى مكة كل سنة مشاة، وبلاد السودان إلى الزنج والبجاه مسيرة أربع عشرة سنة، يأكلون الكلاب ويفضلونها على الغنم ويأكلون الفأر.

وبقي من المائة سنة العمران ست سنين بين الحبشة والهند والصين والفرس والترك والخزر والصقالبة والروم والإفرنج والنامش والنكز والطالشان والعرب وأهل اليمن والعراق والشام ومصر واندلس إلى رومية العظمى وسائر أهل الكفار، وإنما المسلمون بينهم جزء من ألف جزء.

وعند صنعاء أمة من العرب قد مسخوا، كل إنسان منهم نصف إنسان، له نصف رأس

---

(١) مدينة لمطة: لدى ابن سعيد أنها تقع في غربي كزولة، التي تتصل بينها وبين المحيط الأطلسي، ولدى ياقوت: لمطة: أرض لقبيلة من البربر بأقصى المغرب، يقال للأرض وللقبيلة معاً: لمطة.

(٢) تقع على الشاطئ الإفريقي لخليج عدن.

وتصف بدن ويد واحدة ورجل واحدة، يقال لـهم وبار، هم من ولد إرم بن سام أخو عاد وثمود، وليس لهم عـقول، يعيشـون في الآجام وفي بلاد الشحر على شـاطئ بحر الهند، والعرب تسـميـهم النسناس، ويصطادونهم ويأكلونهم، وهم يتكلمـون بالعربيـة ويتناسلون ويسمون بأسامي العرب، ويقولون الأشـعار، ورأيت في «تاريخ صنعاء» أن تاجراً سافر في بلادهم فرآهم يثبون على رجل واحـدة ويصعدون الشـجر ويفرون خـوفًا من الكلاب أن تأخذهم، وسمع واحداً منهم يقول: [رجز]:

فـررت مـن خـوف الشـراة شـداً
إذ لم أجـــد من الـفـــرار بداً
قـد كنت قـدمـا فـي زماني جلداً
فـهـا أنا اليـوم ضـعيف جـداً[1]

وقد ذكرهم الأعشى في شعره حيث يقول: [مخلع البسيط]:

ألـم تروا إرمـــا وعـــاداً
أفـناهـم الـليل والـنـهـــارُ
وأهلكت بعـــدهم ثمـــود
بمـــا جنى فـيــهم قـدارُ
وحـلَّ بالحـيِّ مـن جـديس
يوم مـن الشـر مـسـتـطارُ
وجـاسـم بعـــدها وطسم
قـد أوحـشت منهم الـديار
ومـــسِّـخت بعـدهم وبار
فــلا صـحـار ولا وبار

وفي بلاد السودان أمة لا رءوس لهم ذكرهم الشعبي في كتاب «سير الملوك».

وذكر أن في فيافي بلاد المغرب أمة من ولد آدم كلهم نساء ولا يكون بينهم ذكر، ولا يعيش في أرضهم وأن أولئك النساء يدخلن في ماء عندهن فيحملن من ذلك الماء، فتلد كل

(١) آثار البلاد ص ٦٤ .

امرأة بنتًا ولا تلد ذكرًا البتة، وأن تبعًا ذا المنار وصل إليهن لمّا أراد أن يصل إلى الظلمات التي دخلها ذو القرنين والله أعلم، وأن ولده إفريقش بن تبع ذا المنار هو الذى بنى مدينة إفريقية وسماها باسم نفسه، وأن والده تبع وصل إلى وادى السبت وهو واد بالمغرب يجرى فيه الرمل كما يجرى السيل لا يمكن حيوان أن يدخل فيه إلا هلك، فلما رآه استعجل الرجوع، وذو القرنين لما وصل إليه أقام إلى يوم السبت فسكن جرياته، فعبر إلى أن وصل إلى الظلمات فيما يقال والله أعلم.

وأولئك الأمة الذين لا رءوس لهم، أعينهم فى مناكبهم، وأفواههم فى صدورهم، وهم أمم كثيرة كالبهائم يتناسلون ولا مضرة على أحد منهم، ولا عقول لهم، والله أعلم.

والمُلْكُ العظيم والعدل الكثير والنعمة الجزيلة والسياسة الحسنة والرخاء الدائم والأمن الذى لا خوف معه فى بلاد الهند وبلاد الصين، وأهل الهند أعلم الناس بأنواع الحكم مثل الطب والنجوم والهندسة والصناعات العجيبة التى لا يقدر أحد سواهم على أمثالها.

وفى جبالهم وجزائرهم ينبت شجر العود وشجر الكافور وجميع أنواع الطيب كالقرنفل، وجوز بوا[1]، والسنبل والدارصينى، والقرفة، والسليخة، وقاقلة، وكبابة، وبسباسة، وأنواع العقاقير والأدوية.

وعندهم حيوان المسك الفائق وهو حيوان كالغزال يجمع المسك فى سرّته، وعندهم حيوان الزباد، وهو نوع من الطيب، وذلك الحيوان كالسّنّور يحمل إلى بلد المغرب وذلك عرق يؤخذ من ذلك الحيوان كالقطران الأسود ثخينا، يسيل من جسده، وتزيد رائحته بالمغرب، بحيث يكون أزكى من المسك، ويخرج من بلادهم أنواع اليواقيت وأكثرها فى جزيرة سرنديب، وعلى جبلها نزل آدم عليه السلام من الجنة فيما يقال.

[بلاد الصين]

وأما بلاد الصين: فهى كبيرة، وملوكها أهل عدل وإنصاف وهم أكثر من أهل الهند أضعافًا مضاعفة، وفى أرضهم نعم كثيرة، ولهم أنواع من الصنائع لا يهتدى إليها غيرهم

(١) جوز بوا: هو جوز الهند، يؤتى به من بلاد الهند (ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية جـ١ ص ١٧٥).

كالفخار الصينى والديباج وغيـر ذلك وهم يعبدون الأصنام كأهل الهند، لا يأكلون الحيوان ولا ما يخرج من الحيـوان كاللبن والعسل، ويحرمون على المسلمين ذبح البـقر، ويبيحون لهم ما سوى ذلك.

وإذ مرض منهم أحد أعطى للقصاب مالاً بقدر ما يرضيه أياماً ويقول أعتق الحيوان من الذبح أيامًا معدودة على قدر ما يرضيه.

وإذا مات بينهم غريب وله أحـمال من الأموال لا يتعرضون لتركـته ولا لشيء من ماله وأولاده ونسائه، ويحترمـون التجار من المسلمين غاية الاحتـرام ولا يؤخذ منهم أعشار فى بيع وشراء ولا مكس، فيا ليت ملوك المسلمين اقتـدوا بمثل هذه السياسة الحسنة فهم كانوا أحق بها، ولكن ذلك للحكمة الإلهية وذلك أن النبى ﷺ قال: «الدُّنيا سِجْن المؤمن»[1] والسجن موضع الضيق والخوف، ولا يكون ذلك إلا مع عـدم العدل وكثرة الظلم والجور وقلة المال والخصب حتى يتحقق فى حق المؤمن السجن فى الدنيا.

وقـال ﷺ: «الدنيا جنـة الكافر» والجنة مـوضع الرخـاء والنعـمة والأمن والعـدل والسياسة والطيب وأنواع الطيبات والحمـد لله الذى جعل جور ولاة المسلمين من معجزات سيد المرسلين محمد ﷺ وعلى آله وصحابته أجمعين والحمد لله رب العالمين.

وأما الجانّ فإنى قـرأت فى بعض الكتب المتـقدمـة المأثورة عن العلمـاء أن الله تبارك وتعالى لما أراد أن يخلق الجان خلق نـار السموم، وخلق من مارجها خلقًا سمـاه جانًا كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ (سورة الحجر: ٢٧) وقال عز وجل فى مـوضع آخر: ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ (سورة الرحمن: ١٥) ثم خلـق من الجن زوجته وسماها جنّيه؛ فتغشاها زوجـها الجان فحملت فأقامت ما شاء الله فلما أثقلت وضعت إحدى وثلاثين بيضـة، فانفلقت منها بيضة واحدة فخرج منهـا حيوان على خلاف الجن في الخلق والشكل، فـقالت لها الجـنّية: من أنت؟ فقـالت: أنا قُطْرِبَة أم القطارب، فقالت لهـا الجنّية: يا قطربة؟ فقالت: أنا قطربة، سـميعا دعوت، فـمن يعنى بأمرك؟ قالت الجنّيـة: يا قطربة لمـاذا خُلِقْتِ؟ قالت: قطربة: خلـقت لأحضن هذا البـيض وأفرقـه فى مظانّه، قالت الجنّية: فدونك.

---

(١) أخرجه صاحب الكنز برقم ٨١-٦.

قال: فجلست قطرية على ذلك البيض شهراً واحداً، ففقست منها بيضة واحدة فخرج منها ستون ألف إبليس وستون ألف إبليسة ذكوراً وإناثاً فيما يقال والله أعلم. إبليس اللعين واحد منهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من السعالى وستون ألفاً من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من الغيلان ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من الهوام ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من الدهاتش ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من الغمامية ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من العفاريت ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من السحابية ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من الدخانية ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من النارية ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من النجاسية ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من الذهابية على لون الذهب ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من الريحية ومثلهم من إناثهم، وفقست بيضة أخرى فخرج منها ستون ألفاً من الزوابعة ومثلهم من إناثهم، وهم الذين يدورون بالريح والغبار في البراري كما تدور الرحى. فتفرقت قطرية كل جنس من هؤلاء الجن حيث أراد الله تعالى من القفار والجبال والرمال والغيران والغياض والبحار والجزائر والظلمات والهواء ومواضع النجاسات ومواضع الدماء ومواضع القبور، وقالت لهم: اكثروا واعمروا فكل واحد منكم يغشى زوجته فتضع له إحدى وثلاثين بيضة في كل بيضة ستون ألف ذكر وستون ألف أنثى وهذا ما لا يحصيه إلا الله تعالى، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٩).

ولولا أن الله سبحانه وتعالى وكّل بكل آدمي ملائكة يحفظونه من الجن لأهلكت الجن ولد آدم، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (سورة الرعد: ١١) فلله الحمد على فضله ونعمه، وكم في الأرض من أنواع المخلوقات لم يسمع بذكرها، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة النحل: ٨).

واعلم أن الأرض والجبال والبحار التى قد أحاط بها جبل قاف وما فيها من عجائب المخلوقات فى فلك القمر الذى هو أصغر الأفلاك كالنقطة فى الدائرة العظيمة التى لا تبين فيها، وهذه الأرض بما فيها من الهواء والفلك محيط بها من كل جانب بلا دعامة تحتها ولا علاقة من فوقها، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا ﴾ (سورة فاطر: ٤١) وفلك القمر فى الفلك الثانى كالأرض فى فلك الدنيا، وكل فلك فى الذى فوقه كالأرض فى فلك القمر، والسموات السبع فى الكرسى قال ﷺ كحلقة القيت فى فلاة من الأرض، قال الله عز وجل: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٥) والكرسى عند العرش كحلقة فى فلاة من الأرض، قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (سورة التوبة: ١٢٩) وقال جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام، يرويه عن أبيه فى صفة العرش أن العرش له ثلاثمائة ألف قائمة، وستون ألف قائمة، دور كل قائمة ثلاثمائة ألف سنة وستون ألف سنة، بين كل قائمتين ثلاثمائة ألف وستون ألف سنة، علو كل قائمة ألف ألف طبقة، مثل ما بين العرش إلى آخر العالم، وهنا ما لا يحصيه إلا الله عز وجل.

وخلق الله عز وجل حية وقد أحاطت بالعرش[1] والتقى رأسها وذنبها، ولها من الأجنحة عدد لا يعلمه إلا الله عز وجل، على كل جناح من أجنحتها من الملائكة المقربين ما لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، فى يد كل ملك منهم حربة من نور لا يعلم عظمها إلا الله تعالى، لو كشف الحجاب عن نور حربة ملك منهم لأحرق نورها من دونهم، فسبحان الله ما أعظم شأنه وأكبر سلطانه.

والأمر أعظم والسلطان أكبر مما سمعناه أو توهمناه، والله أعلم بكل شيء وهو على كل شيء قدير، وقد قال تعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة النحل: ٨) وقال رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى فى ناحية المغرب أرضًا للشمس فيها مسيرة ثلاثين يومًا، قيل: يا رسول الله، هل يسكنها أحد من بنى آدم؟ قال: يسكنها خلق من خلق الله تعالى لا يعلمون أن الله تعالى خلق آدم قط، قيل: فهل يخدعهم إبليس لعنه الله؟ قال: ما يعلمون أن الله تعالى خلق إبليس قط.

فتفكر أيها العبد الضعيف فى هذه الأرض التى هى أعظم من السموات السبع مرات

(١) هذا من الإسرائيليات التى لا يصدقها العقل ولا تستقيم مع الفكر الإسلامى القويم.

وما فيها من عجائب المخلوقات، فكيف في غيرها من الجهات، فكيف قوائم العرش الذي دور كل قائمة ثلاثمائة ألف سنة وستون ألف سنة، كم داخل كل قائمة من العالم ولهذا قال ﷺ: «تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله» لأن التفكر في المخلوقات من أجل العبادات والتفكر في الله تعالى يخاف على المتفكر أكبر الضلالات، لأنه تعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، جعلنا الله وإياكم من الفائزين الآمنين المستبشرين المطمئنين، إنه أرحم الراحمين.

الباب الثاني

في صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان

اعلم أن الله عز وجل قال في القرآن المبين: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ (سورة الفجر: ٦-٨) حكى الشعبي في كتاب «سير الملوك» أن الملك شداد بن إرم بن عاد ملك جميع الدنيا وكان قومه قوم عاد الأولى زادهم الله بسطة في الأجسام وقوة حتى قالوا: من أشد منا قوة؟ قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ (سورة فصلت: ١٥) وأن الله قد بعث إليهم هوداً النبي عليه السلام فدعاهم إلى الله عز وجل وعبادته وطاعته فقال شداد: إن آمنت بإلهك ماذا لي عنده؟ فقال هود عليه السلام: يعطيك في الآخرة جنة مبنية من ذهب، فيها قصور من ذهب، عليها غرف من ذهب، من فوقها غرف من ذهب، ويواقيت ولؤلؤ، وأنواع الجواهر، قال شداد: فأنا أبني في هذه الدنيا مثل هذه الجنة ولا أحتاج إلى ما تعدني بعد الموت.

قال كعب الأحبار ﷺ: إن الله تعالى وصف قصة إرم ذات العماد في التوراة لموسى عليه السلام وصفة بنيانها[١] قال: أمر شداد ألف أمير من جبابرة قوم عاد أن يخرجوا ويطلبوا أرضاً واسعة كثيرة المياه طيبة الهواء بعيدة من الجبال ليبني عليها مدينة من ذهب، قال: فخرج الأمراء ومع كل أمير ألف رجل من جنده وحشمه وطلبوا في أرض اليمن حتى وصلوا إلى جبل عدن، فرأوا هنالك أرضاً واسعة كثيرة العيون طيبة الهواء كما أمرهم به الملك شداد، قال: فأعجبتهم تلك الأرض فأمروا المهندسين والبنائين فخطوا مدينة مربعة الجوانب دورها[٢] أربعون فرسخاً كل وجه عشرة فراسخ فحفروا الأساس إلى الماء وبنوه

(١) انظر في ذلك: المستطرف ص ٥٤٣.
(٢) دورها: محيطها.

بحجارة الجزع اليماني حتى ظهر على وجه الدنيا، ثم بنوا فوقه بلبنات الذهب الأحمر سوراً علوه خمسمائة ذراع في عرض عشرين ذراعاً.

وكان شداد قد بعث إلى جميع معادن الدنيا فاستخرج منها الذهب واتخذه لبناً ولم يترك في يد أحد من الناس في جميع الدنيا شيئاً من الذهب إلا غصبه، واستخرج الكنوز المدفونة، ثم بنى في باطن المدينة ثلاثمائة ألف قصر وستين ألف قصر، في كل قصر ألف عمود من أنواع الزبرجد واليواقيت معقود بالذهب، طول كل عمود مائة ذراع، ومد على الأعمدة ألواح الذهب والفضة، وبنى على الألواح قصوراً من ذهب من فوقها غرف من ذهب ومن فوق الغرف غرف أيضاً، وجميع ذلك مزين بأنواع اليواقيت والجواهر، وجعل في طريق المدينة أنهاراً من ذهب وجعل حصاها اليواقيت والجواهر وأنواع الزبرجد واللآلئ، وجعل على شطوط تلك الأنهار أنواع النخيل والأشجار جذوعها من الذهب، وأوراقها وثمرها من أنواع الزبرجد واليواقيت واللآلئ، وجعل للمدينة أربعة أبواب كل باب علوه مائة ذراع في عرض عشرين ذراعاً كل ذلك بالذهب مزيناً بأنواع اليواقيت والجواهر، وجعل حصباء المدينة من أنواع الجواهر.

ثم بنى حول المدينة مائة ألف منارة، كل منارة طولها خمسمائة ذراع من ذهب مزينة بأنواع اليواقيت والجواهر، في كل وجه من وجوه المدينة خمس وعشرون ألف منارة من ذهب برسم الحراس الذين يحرسون المدينة، فتم بنيانها في خمسمائة عام، فلما فرغوا من بنيانها سيروا إلى مشارق الأرض ومغاربها أن يتخذوا في البلاد بسطا ومستوراً وفرشاً من أنواع الحرير لتلك القصور والغرف التي في إرم ذات العماد، واتخذوا أنواع الأواني والأطباق والقصاع والموائد والمنائر والسرج والقدور والهواوين والحباب والكيزان وجميع ما يحتاج إليه في الدنيا من أنواع الذهب، ففرغ ذلك في عشر سنين، فزينت المدينة بالفرش والستور والآلات واتخذ فيها أنواع الأطعمة والأشربة والأثقال والحلاوات والطيب والشموع والبخور بأنواع العود والعنبر والكافور.

فلما فرغوا من ذلك كله خرج الملك شداد في ألف ألف جارية حسان عليهن أنواع الحلي والحلل سوى الخدم والحشم، وخلّف على مملكته ابنه مرثد بن شداد، وكان أكبر أولاده وأعقلهم وأحسنهم سياسة وأحبهم إلى الرعية، قال فلما أشرف شداد على مدينة

إرم ذات العماد ورآها أعجبه ما رأى من حسنها وإتقانها، فقال: قد وصلت إلى ما كان هود يعدنيه بعد الموت وقد حصلت عليه فى الدنيا، فلما أراد دخول المدينة أمر الله تعالى ملكًا من الملائكة فصاح بهم صيحة الغضب فقبض ملك الموت عليه السلام أرواحهم فى طرفة عين فخروا على وجوههم صرعى، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى﴾ (سورة النجم: ٥٠) وأخفى الله المدينة عن أعين الناس فيرون فى الليل فى تلك البرية التى بنيت فيها إرم لمعان الذهب واليواقيت التى للمدينة تضيء كالمصابيح، فإذا وصلوا إليها لم يجدوا هنالك شيئًا ورأوا ذلك الضوء فى مكان آخر وقد دخلها رجل من أصحاب النبى ﷺ يقال له عبد الله بن قلابة الأنصارى، خرج فى طلب إبل له ضلت فما زال يقتص آثارها حتى وصل إلى جبل عدن، فظهر له سور مدينة إرم ذات العماد، فلما نظر إلى سورها يلمع ذهبًا أحمر مرصعًا بأنواع اليواقيت ورأى تلك المنائر حولها معمولة بالذهب مزينة بالجواهر فعظمت المدينة فى عينه، فلما رآها ولم ير لها آخرًا ولا أولاً دهش وبهت، وكلما قرب منها زاد تعجبه وقال فى نفسه: هذه تشبه الجنة التى وعدها الله عباده المتقين فى الآخرة.

فقصد بابًا من أبوابها فلما وصل إليه أناخ ناقته ودخل الباب فرأى تلك القصور والأنهار والأشجار ولم ير فى المدينة أحدًا تعجب فقال: أرجع إلى معاوية وأعلمه بهذه المدينة ليأتى إليها ويسكنها، وأخذ معه من حصباء المدينة جواهر ويواقيت وزبرجدًا وجعله فى وعاء كان معه على راحلته، وعلم على المدينة علامة وقال: قربها من جبل عدن كذا وكذا، ثم انصرف بعدما ظفر بإبله حتى دخل على معاوية بدمشق فسلم عليه فسأله معاوية: من أين قدم؟ قال: جئتك من مدينة من ذهب لا يدرى أولها ولا آخرها لعظمها فيها قصور من ذهب عليها غرف من ذهب على غرف أيضًا من ذهب مزينة بأنواع اللآلئ تشبه الجنة التى وعدها الله عباده فى القرآن، فقال معاوية: أرأيت هذه المدينة فى النوم؟ قال: رأيتها فى اليقظة وقد أخذت من حصبائها فأخرج إليه أنواعًا من الجواهر واليواقيت ما لم ير مثله فوجد بين تلك الجواهر واليواقيت مثل بعر الإبل من العنبر معجونًا بالمسك والكافور والزعفران، قد قلت رائحته من القدم، فجعل منها على النار فسطعت له رائحة العنبر والمسك والكافور والزعفران، فتعجب معاوية من ذلك وقال: لقد رأيت عجبًا.

ثم أرسل معاوية إلى كعب الأحبار ﷺ فلما قدم عليه سلم وجلس فرد عليه السلام

وقال له معاوية: يا أبا إسحاق، هل بلغك أن فى الدنيا مدينة من ذهب؟ فقال كعب: نعم، يا أمير المؤمنين، وقد ذكرها الله عز وجل لموسى بن عمران عليه السلام، ومن بناها، وقص عليه خبرها وكيف هلك بانيها وقومه، وقد ذكرها الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ مختصرة فقال عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (سورة الفجر: ٦-٨) وقد أخفاها الله عز وجل عن أعين الناس وسيدخلها من هذه الأمة رجل يقال له عبد الله بن قلابة الأنصارى، وجعل يصفه، ثم إنه نظر إلى عبد الله المذكور جالسًا عند معاوية فقال: ها هو ذاك القاعد فسله عما قلت لك، فإن صفته واسمه في التوراة ولا يدخلها أحد بعده إلى يوم القيامة، فتعجب معاوية من ذلك وأمر لهما بخلع ومال وصرفهما ﷺ والله أعلم.

[مدينة النحاس]

حديث مدينة النحاس التي بنتها الجن لسليمان بن داوود عليهما السلام فى فيافي الأندلس بالمغرب الأقصى قريبًا من بحر الظلمات، حدّث الهيقل بن زياد، أن عبد الملك ابن مروان[1] بلغه خبر مدينة النحاس أنها بالأندلس فكتب إلى عامله بالمغرب أنه قد بلغني خبر مدينة النحاس التي بنتها الجن لسليمان بن داوود عليهما السلام، فاذهب إليها واكتب إليّ بما تعاينه فيها من العجائب وعجّل إليّ بالجواب سريعًا إن شاء الله تعالى.

قال: فلما وصل كتاب عبد الملك بن مروان إلى عامله بالمغرب موسى بن نصير خرج في عسكر كثيف وعدة كثيرة وزاد لمدة، وخرج معه الأدلاء يدلونه على تلك المدينة، فسار على غير طريق مسلوك مدة أربعين يومًا حتى أشرف على أرض واسعة كثيرة المياه والعيون والأشجار والوحوش والأطيار والحشائش والأزهار، وبدا لهم سور مدينة النحاس كأن أيدي المخلوقين لم تصنعها فهالهم منظرها.

ثم إن الأمير موسى بن نصير قسم عسكره قسمين، فنزل كل طائفة فى ناحية من سور المدينة، وأرسل قائدًا من قواده فى ألف فارس وأمره أن يدور حول المدينة وينظر هل يرى لها بابًا أو يشاهد حولها أحدًا من الناس فسار ذلك القائد وغاب عن الأمير ستة أيام.

---

(١) انظر فى هذا الخبر وما يليه: آثار البلاد ص ٥٥٩.

فلما كان فى اليوم السابع جاء ذلك القائد مع أصحابه وذكر أنه سار حول المدينة ستة أيام فلم يشاهد حولها من الآدميين أحدًا، ولم يجد للمدينة بابًا.

فقال موسى بن نصير: كيف السبيل إلى معرفة ما فى هذه المدينة؟

فقال المهندسون تأمر بحفر أساسها فمنه يمكن أن يدخل إلى داخل المدينة قال: فحفروا عند أساس سور المدينة حتى وصلوا إلى الماء وأساس النحاس راسخ تحت الأرض حتى غلبهم الماء، فعلموا أنه لا سبيل إلى دخولها من أساسها.

فقال المهندسون: تبنى إلى زاوية من زوايا أبراج المدينة بنيانا حتى نشرف على المدينة.

قال: فقطعوا الصخر وأحرقوا الجص والنورة، وبنوا إلى جانب المدينة فى زاوية برج من أبراجها بنيانًا مقدار ثلاثمائة ذراع حتى عجزوا عن رفع الحجارة والجص والنورة وقد بقى من السور مقدار مائتى ذراع.

فأمر موسى بن نصير أن يتخذوا من الأخشاب بنيانًا، فاتخذوا بنيانًا من الأخشاب على ست البنيان الذى من الحجارة حتى وصلوا مائة وسبعين ذراعًا.

ثم اتخذوا سلمًا عظيمًا ورفعوه بالحبال على ذلك البنيان حتى أسندوه إلى أعلى السور.

ثم ندب موسى بن نصير مناديًا ينادى فى الناس أن من صعد إلى أعلى سور المدينة فعليه ديته، فجاء رجل من الشجعان والتمس ديته، فأمر موسى بن نصير بأن تسلم إليه فقبضها وأودعها، وقال: إن سلمت فهى أجرتى وأنا اقبضها، وإن هلكت فتسلم لورثتى.

ثم صعد حتى علا فوق السلم على سور المدينة، فلما علاه وأشرف على المدينة صحت وصفق بيديه وألقى نفسه إلى داخل المدينة.

قال: فسمعوا ضجة عظيمة وأصواتًا هائلة ففزعوا واشتد خوفهم وتمادت تلك الأصوات ثلاثة أيام ولياليها، ثم سكنت تلك الأصوات، فصاحوا باسم ذلك الرجل من كل جهة من العسكر فلم يجبهم أحد.

فلما أيسوا منه ندب أيضاً الأمير موسى بن نصير منادياً فنادى فى الناس وقال: أمر الأمير أن من ذهب وصعد إلى أعلى السور أعطيته ألف دينار فبرز رجل آخر من الشجعان وقال: أنا أصعد إلى أعلى السور.

فأمر الأمير أن يعطى ألف دينار فقبضها، وعمل فيها كما عمل الذى تقدمه ووصاه الأمير وقال له: لا تفعل كما فعل فلان، وأخبرنا بما تراه ولا تنزل إليهم وتترك أصحابك، فعاهدهم على ذلك.

فلما صعد وأشرف على المدينة ضحك وصفق بيديه وألقى نفسه وكل من فى العسكر يصيحون له ويقولون: لا تفعل، فلم يلتفت إليهم وذهب فسمعوا أيضاً أصواتاً عظيمة هائلة أشد من الأصوات الأولى حتى خافوا على أنفسهم الهلاك وتمادت تلك الأصوات ثلاثة أيام ولياليها ثم سكنت.

فقال موسى بن نصير: أنذهب من هاهنا ولم نعلم بشىء من علم هذه المدينة! وبماذا أكتب وأجاوب أمير المؤمنين؟ وقال: من صعد أعطيته ديتين، فانتدب رجل من الشجعان وقال: أنا أصعد، فشدوا فى وسطى حبلاً قوياً وامسكوا طرفه معكم، حتى إذا أردت أن ألقى نفسى إلى المدينة فامنعونى.

قال: ففعلوا ذلك، وصعد الرجل، فلما أشرف على المدينة ضحك وألقى نفسه فجروه بذلك الحبل والرجل يجر من داخل المدينة حتى انقطع جسد الرجل نصفين ووقع نصفه من محزمه مع فخذيه وساقيه، وذهب نصفه الآخر إلى داخل المدينة، وكثر الصياح والضجيج فى المدينة.

فحينئذ أيس الأمير موسى من أن يعلم شيئاً من خبر المدينة، وقال: ربما يكون فى المدينة جن يأخذون كل من اطلع على المدينة، وأمر الأمير موسى عسكره بالرحيل وسار خلف المدينة فرسخاً أو نحوه، فرأى ألواحاً من الرخام الأبيض كل لوح مقدار عشرين ذراعاً فيها نقش كتاب باللسان المسند فيها أسماء الملوك والأنبياء والتبابعة والفراعنة والأكاسرة والجبابرة ووصايا ومواعظ، وذكر النبى ﷺ وذكر أمته وشرفه وشرف أمته وما لهم عند الله عز وجل من الكرامة.

وكان معه من العلماء من يقرأ كل لغة فنسخوا ما على تلك الالواح، ثم رأوا على بعد صورة من نحاس فذهبوا إليهـا فوجدوا الصورة على صـورة رجل فى يده لوح من نحاس وفى اللوح مكتوب ليس ورائى مذهب، فارجعوا ولا تدخلوا هذه الأرض فتهلكوا.

فقال الأمير مـوسى بن نصير: هذه أرض بيضاء كثيرة الأشجار والنبـات، والماء فيها، فكيف يهلك الناس فيها؟.

وأمر جمـاعة من عبيده فدخلوا تلك الأرض، فـوثب عليهم من تلك الأرض من بين الأشجار نمل عظام كالسباع الضارية فقطعـوا أولئك الرجال وخيولهم، وأقبلوا نحو العسكر مثل السحاب كثرة حتى وصلوا إلى تلك الصورة، فـوقفوا عندها ولم يتعدوها، فعجبوا من ذلك وانصرفوا، حتى إذا بعدوا من المدينة إلى ناحية المشرق رأوا شجراً كثيراً.

حديث البحيرة والجن المسجونين فيها:

قال فلمـا وصلوا إلى تلك الشجر رأوا عنده بحـيرة والأمواج فيـها تلتطم والطير كثـير حواليها الشجر مثمر عليها لم ير الراءون أحسن منها لكثرة الأشجار، ومناغاة الأطيار وألوان الأزهار، وطيب تلك الثمار، فأعجـب بها الأمير مـوسى وأمر أجناده وأصـحابه أن ينزلوا حولها فنزلوا، وأمر الغواصين فغاصوا فى البحيـرة فأخرجوا جبابا من النحاس عليها أغطية من النحاس مختـومة، قال: ففتح منها جبًا فـخرج منه فارس من نار على فرس من نار فى يده رمح من نار فطار فى الهواء، وهو ينادى: يا نبى الله لا أعود.

وفتح جبًا آخر فخرج منه فارس كـالدخان على فرس كالدخـان فى يده رمح كالدخان وهو يقول: يا نبى الله لا أعود.

وفتح جبًا آخر فخرج منه فارس كالصـقر على فرس كالصقر فى يده رمح كالصقر فطار فى الهواء وهو ينادى: يا نبى الله لا أعود.

فقال الأمير موسى ومن كان معه من العلماء: ليس الصواب أن نفتح هذه الجباب لان فيهـا جنًا قد سجنهم سليـمان بن داوود عليهمـا السلام لتمردهم، فـأعاد بقية الجـباب إلى البحيرة.

ثم أذن المؤذن لصلاة الظهر، فلما ارتفـعت الأصوات بالأذان خرج من وسط البحيرة شخص كالآدمى هائل المنظر، وجعل ينظر إلى الناس يمينًا وشمالاً فصاح به الناس من كل جانب، من أنت يا هذا القائم على الماء؟.

فقال: أنا من الجن الذين سجنهم سليمان بن داود في هذه البحيرة، وإنما خرجت لما سمعت أصواتكم لأنني ظننت أنه صاحب الكلام.

قالوا له: ومن صاحب الكلام؟.

قال: رجل يمر بهذه البحيرة في كل سنة يوماً، فيقف يذكر الله عز وجل ويسبح ويقدس ويكبر ويستغفر ويدعو لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات ثم ينصرف، وأسأله عن اسمه ومن هو فلا يكلمني، قيل له أتظنه الخضر؟ قال: لا أدري، قيل: كم سجن سليمان في هذه البحيرة من الجن؟ قال: ومن يقدر يحصي عددهم، ثم غاب عنا.

قال: فعزمنا على الانصراف فقالت الأدلاء: أيها الأمير، إن الطريق الذي جئنا منه لا يمكن الرجوع فيه لأن الامم التي حول ذلك الطريق قد علمت بمجيئنا وقد حالوا بيننا وبين الرجوع عليهم ولا قدرة لنا على قتالهم، ولكنا نعدل إلى جهة أخرى على أمة يقال لها منسك.

حديث منسك بن النفرة:

من ولد يافث بن نوح النبي عليه السلام، قال: فخرجوا من أرض كثيرة الأشجار والمياه والوحوش على غير الطريق حتى وصلوا بعد أيام إلى مدينة عظيمة، وإذا بقوم كأن كلامهم كلام الطيور لا يفهم، فلما رأونا أحاطوا بنا وعليهم أنواع السلاح وهم كالتراب كثرة، فأيقنا بالهلاك حتى خرج ملكهم عليه لباس الملوك وحوله الحشم، فلما رآنا أقبل إلينا وحده وسلم علينا بلسان عربي قال: ففرحنا لما فهمنا كلامه واستبشرنا، وقال: أيها الناس، من أنتم ومن أميركم وفيم دخلتم هذه الأرض؟ فإنا ما رأينا أحداً مثلكم.

قال: فخرج إليه الأمير موسى بن نصير وسلم عليه، وقال: أيها الملك، أنا أمير قومي وأنت أمير علينا ونحن قوم من العرب من جند أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، ولنا خبر وحديث، إذا نزلنا واسترحنا من تعب السفر أعلمناك أمرنا.

فقال الملك: إن أرضنا كثيرة الحر في وسط النهار وتميل الشمس على أرضنا، وسآمر لكم بإنزالكم في بعض الأودية لتستكنُّوا فيه من الحر، كثير الشجر والمياه شاهق الجبال.

فأمر بعض أمرائه أن ينزلنا ويقوم بجميع ما نحتاج إليه من الطعام والعلف وغيره،

فأنزلنا فى واد كثير العيون والشجر والأراضى النضرة النظرة التى تخللها الانهار قد أينعت بالأزهار وقد حلت من اختلاف الثمار عليها من سائر الأطيار، تتناغى بسائر اللغات، من بين قُمْرِيّ، ونوبى وشحرور، وبلبل، يتجاوبن كنغمات العيدان، والنايْ، والرباب، والطربرب، والطنبور إذا جسهن كل مجيد بالموسيقى جس خبير.

وأمر لنا بجميع ما نحتاج إليه من أطعمة وحلواء وعلوفات الدواب والإقامة الحسنة، فأقمنا فى أحسن موضع.

ثم إن الملك أقبل إلينا فى جماعة أمرائه وحشمه، فتلقيناه بالترحيب وشكرناه على ما أولانا من الإحسان، فاعتذر إلينا ثم جلس وأمراؤه قيام على رأسه للمخدمة فى أحسن هيئة.

فقال له الأمير موسى بن نصير: أيها الملك من أنت ومن قومك ومن أى الأمم أنتم؟ فقال الملك: أما نحن فأمة من ولد منسك بن النفرة من ولد يافث بن نوح عليه السلام، وأن ملكهم أرث الملْك من آبائى فيهم، وقومى أمم لا عدد لهم، ولى بلاد كثيرة ورساتيق وقلاع وحصون لا عدد لها، فأخبرنى من أنت ومن أين أنت وما أدخلك هذه الأرض؟.

فقال: أيها الملك نحن قوم من العَرَب من جند خليفة المسلمين عبد الملك بن مروان. كتب إلى يأمرنى أن أذهب إلى مدينة النحاس وأكتب إليه بما أرى فيها فخرجت بقومى ووصلت إلى المدينة ولم أجد لها بابًا واحتلت كل حيلة فلم أقدر على دخولها، ورأيت ألواح الرخام وكتبت ما عليها ورأيت البحيرة.

فقال الملك: أما المدينة فقد رأيتها وما على الألواح فكل عاقل فى بلادى يحفظ تلك الوصايا والمواعظ التى عليها، فقال موسى بن نصير: أيها الملك كيف تعلم لسان العرب ولا أرى فى قومك من يكلمنا به غيرك فقال الملك: ما من لسان أمكننى تعلمه إلا وقد أنفقت على تعليمه أموالاً وتعبت فى معرفته دهرًا، والملك إذا لم يصلح لنفسه بأن يصلح ما يزيد فى فضائلها كيف يصلح لرعيته! ومعرفة اللسان زيادة إنسان فكل لسان إنسان فاستأذناه فى الرحيل فأذن لنا وزودنا وأخرج معنا الأدلاء يخرجونا من بلاده على أسهل الطرق، فودعناه وانصرفنا حتى وصلنا إلى بلاد الأندلس بعد ثمانية شهور.

ثم كتب موسى بن نصير إلى عبد الملك بن مروان، فعجب من أمر المدينة ومن تلك المواعظ والوصايا التى على تلك الألواح وأسماء الملوك وذكر محمد النبى ﷺ وعلى

آله وشرف أمته وقال: الحمد لله الذي جعلنا من أمة محمد ﷺ، وأجاز الرسول وأحسن إليه فيما يقال والله أعلم.

رومية العظمى:

وهي مدينة عجيبة عظيمة، دورها عشرون فرسخًا، وعليها ثمانية أسوار من الصخر عالية في الهواء ولها باب واحد، لأن جوانبها الثلاثة يحيط بها البحر الأسود، والجانب الواحد إلى البر، وهي في جبل داخل البحر، وقد بنتها الجن لسليمان، حفروا ذلك الجبل حتى بنوا المدينة في الجبل والبحر يعلو المدينة.

وحول المدينة نهر من النحاس عمقه أربعون ذراعًا وعرضه أربعون ذراعًا، وعليه ألواح من النحاس طول كل لوح خمسون ذراعًا في عرض عشرين ذراعًا في غلظ ذراعين، فيما يقال والله أعلم.

وجعلوا من أول المدينة إلى آخرها أعمدة من النحاس صفين، وعلى الأعمدة نهر من النحاس يدخل ماء البحر، وتدخل السفن فيه بأثقالها، وهذا من عجائب الدنيا.

وفيها فيما يقال كنيسة من ذهب عظيمة طولها ألف ذراع في عرض خمسمائة، ويقال: إن في الكنيسة من الصفر الأصفر الذي يشبه الذهب.

وفيها من الكنائس العظام والبناء العجيب الذي لم يشاهد الناس مثله قط.

وفيها من الصوامع المعمولة من النحاس وأنواع الحجارة آلاف يسكنها الرهبان.

وفيها من الأسواق أمر عظيم، كل سوق بطول المدينة، وبعضها بعرض المدينة، كل سوق عشرة فراسخ، يباع في كل سوق أنواع الأمتعة والمأكولات من الفواكه، والأخبار والطبايخ وأنواع الحلاوات والأثقال.

ومن آخر يوم السبت إلى صبيحة يوم الاثنين، يدخلون الكنائس ويشتغلون بالصلاة والقربان.

وجميع سقوفها بالرصاص الأسود، وإذا أراد الملك أن يخرج إلى خارج المدينة، يخرج الخدم بين يديه على أيديهم أطباق الذهب، فيها الدنانير يشرونها عن يمين طريق

الملك ويساره، فيميل الناس إلى أخذ الذهب ويتركون للملك الطريق حتى يذهب فيه، يفعل ذلك من كثرة الناس، ويسمى ذلك عندهم الملك الرحيم، [وهو] بمنزلة الخليفة في المسلمين، وجميع النصارى يرجعون إلى حكمه ويطيعون قوله.

ولما كنت في باشغرد سنة خمس وأربعين وخمسمائة، كان بيني وبين رومية أيام يسيرة، وسألت بعض المسلمين الذين يسافرون إليها من باشغرد عن صفتها، فوصف لي كما كتبته هنا، وذكر أن أكثر المدينة قد خرب الآن، لأن الأمراء تنافسوا في البلدة وتقاتلوا، والملك الكبير لا يقدر على قهرهم، قال فترى على قصور الملوك قد نصبوا المجانيق[1] والعرادات[2] يرمي بعضهم بعضًا، وجيش كل محلة يغزو إلى الأخرى، ويقتل بعضهم بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا، ويفتح أهل كل محلة في الأسوار أبوابًا يخرجون منها إلى خارج البلدة.

وكنت قد أردت الذهاب إليها لتشاهدها فمنعني المسلمون، وقالوا: إن بعض إخوة ملكنا قد ذهب إلى رومية، وقد تزوج بنت ملكها، فلو تركناك تذهب إليها لخشينا أن يقال للملك: إنك ذهبت بأموال عظيمة إلى أخيه لتعينه على حرب الملك، فيكون سبب هلاكنا فامتنعت.

وباشغرد هذه أمم عظيمة، وهي ثمان وسبعون مدينة، كل مدينة كأصفهان وبغداد، وفيها من النعيم والرخاء ما لا يعد ولا يحصى، وابني الأكبر حامد، فيها تزوج بامرأتين من كبار المسلمين ورزق أولادًا.

وسكان رومية أمة من النصارى يقال لهم: نامش[3]، وهم أشجع من الإفرنج وأحسن وجوهًا من جميع الروم، وعندهم صناع كثيرون في جميع الصناعات، ويتخذ عندهم ثياب الكتان الذي لا يوجد مثله، الثوب الواحد مائة ذراع وأكثر، أوله وآخره ووسطه شيء واحد، لا يختلف فيه خيط واحد يحمل إلى بلاد الصقالبة، ويعرف بالكتان الروسي.

والروس هم من الصقالبة ويتخذون في رومية أنواعًا من ثياب الصوف الملونة أحسن

---

(١) المنجنيق: آلة قديمة من آلات الحصار، كانت ترمي بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها.

(٢) العَرّادة: آلة من آلات الحرب القديمة، وهي مَنْجَنيق صغير.

(٣) المقصود هنا الألمان.

من الديباج الرومى، يكون الذراع بدينار عندهم، لا ينفذ المطر مع لينه ونعومته وحسن لونه، من أحمر كالدم مصبوغ بالقرمز[1]، وهو حيوان ينزل من السماء فى زمن الخريف على شجر البلوط يشبه الأنجل الأحمر المنتن الذى يكون فى البيوت أحمر صغيراً مثل نوى الخرنوب الشامى منتن الرائحة، فالقرمز يشبهه، وهو أحمر مثله، به يصبغ الصوف والإبريسم، ولا يصبغ القطن ولا الكتان، ولا كل شىء ينبت، إنما يصبغ به ما كان متصلاً بالحيوان، وهذا أيضًا من عجائب الدنيا، وصبغه لا يغير أبداً، فاعلم ذلك.

حديث صنم قادس[2]:

الذى بناه ذو القرنين والله أعلم بالصواب، وذلك أن فى أندلس مجمع البحرين: البحر الأسود، وبحر الروم، وفى مجمع البحرين جزيرة قد بنى فيها منارة من الصخر الأسود الذى لا يعمل فيه الحديد شيئًا البتة، طولها مقدار مائة ذراع أو أكثر، مربعة الأسفل مدورة الأعلى، مصمتة ليس لها باب، وعلى رأسها صورة آدمى أسود كأنه زنجى، قد التحف بثوب من ذهب بالتحاف عجيب لا يقدر أحد أن يلتحف بمثله وقد اضطبع بالثوب وأخرج منكبه الأيمن، وذراعه ويده ممدودة، يشير بإصبعه المسبحة إلى ناحية المغرب واليسرى فى البحر الأسود كأنه قابض على مفتاح، وذلك البحر أبداً، فيه أمواج كالجبال، لا تقدر سفينة تدخل فيه لكثرة أهواله، والله أعلم.

ومما فى جزيرة الأندلس أن ابن حزم ذكر فى «رسالته» التى وضعها فى وصفها، وذكر خصائصها وطبائع أهلها أن أرضها شامية فى طيبها، تهامية فى اعتدالها واستوائها، أهوازية فى عظم خراجها وجبايتها، عدنية فى منافع سواحلها، صينية فى معادنها، هندية فى عطرها وذكائها، وأهلها عرب فى الأنساب والعزة[3] والأنفة وفصاحة اللسان، وطيب النفوس، وإباء الضيم، وقلة احتمال الذل، والنزاهة عن الخضوع، هنديون فى فرط عنايتهم بالعلوم وحبهم لها، بغداديون فى ظرفهم[4] ونظافتهم، ورقة أخلاقهم، ونباهتهم ولطافة أذهانهم، ودقة أفكارهم، نبطيون فى استنباطهم المياه، ومعاناتهم للغراسة وتركيب الشجر والفلاحة،

(١) القرمز: صبغ أرمينى أحمر تصبغ منه الثياب فلا يكاد يزول. (٢) انظر شكل رقم (١).
(٣) فى الأصل: «والممزة» والمثبت رواية النويرى والمقرى.
(٤) فى الأصل: «طرائقهم» والمثبت رواية النويرى والمقرى.

صينيون فى إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية، تُرْكِيُّون فى معاناة الحروب ومعالجة آلامها والنظر فى مهماتها[١].

نوع من الخصائص فى مدينة حمص من بلاد كرمان: لا يمطر المطر فيها أبدًا إلا خارج البلد، حتى أن الرجل يخرج يده من سورها إلى خارجها تبتل يداه ولا يبتل ساعده، وبقرية من قرى كرمان حصن عادى ليس فيه فأر، فإذا دخل إليه فأر مات، ولا يوجد بمدينة حمص أيضًا عقرب، ويقال إن الطلسم فى قلعتها، ويقال إن حمص لا يدخل مدينتها حية، وإنه متى ذر عليها من ترابها شىء، ماتت لوقتها، وكذلك ليس بها بعوض ولا بق، وأن الرجل متى أخرج يده من السور، وقع عليها البعوض، فإذا أدخل يده طار عنها، ولا يوجد بسجلماسة ذباب.

فصل: ويقال: إن من أقام ببلاد التبت اعتراه سرور لا يدرى ما سببه، ولا يزال مبتسمًا ضاحكًا حتى يخرج منها، وأن الميت إذا مات فيها لا يدخل على أهله كرب ولا حزن، كما يلحق غيرهم عند موت محبوب أو فوت مطلوب[٢].

وفى الصين مناديل الغمر التى إذا اتسخت ألقيت فى النار، فتنقى ولا تحترق.

والعرب تقول لكل طرفة من الأوانى وما أشبهها، كائنًا ما كانت: صينية، لاختصاص الصين بالطرف.

وفى سَمَرْقَنْد القراطيس التى عطلت قراطيس مصر لأهل المشرق، كقراطيس مصر لأهل المغرب.

وفى بَلْخ: أنها شبيهة بالعراق وخراسان والهند[٣].

وفى غزنة أن الأعمار بها طويلة، والأمراض بها قليلة.

وفى بست يقال: إن من مات فيها مغفورًا له، لقد انتقل من جنة إلى جنة.

وفى طوس أن الله تعالى ألان الحجارة، كما ألان لداود عليه السلام الحديد حتى أنهم يتخذون منها ما يتخذ الناس من الزجاج، كالأقداح والكيزان وغيرها من الأوانى.

---

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٥٨، نفح الطيب ج ٣ ص ١٥٠.

(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٦٧.

(٣) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٦٤.

وفي نيسابور أن أهلها لا يكرمون الغريب ولا يؤنسون الغريب[(١)] وفي جرجان، وتسمى بغداد الصغرى، أنها قاتلة للغريب لاختلاف هوائها، وكان أبو تراب النيسابوري يقول: لما قُسمت الدنيا بين الملائكة، وقعت جرجان في قسمة أبي يحيى - يعني ملك الموت[(٢)].

وفي الري أنها تزم بأهلها.

وفي أصبهان حجر الكحل، وذبابها النحل، وحشيشها الزعفران.

وفي فارس أن لشيراز قَفْمة[(٣)] طيبة ليس فيما عداها من كور الفرس.

وفي الأهواز قصبتها مخصوصة بالحمى الدائمة حتى أنها ليست إلى الغريب بأسرع منها إلى القريب، ولا يكاد يوجد بها وجنة حمراء لصبي أو لصبية، ولربما لمست القابلة المولود فتجده محموماً، ومن عجائب خصائصها، أن جميع أصناف الطيب تستحيل رائحتها فيها الاستحالة الشديدة، حتى لا يوجد لها رائحة، وهذا من كثرة الرطوبة وغلظ الهواء والبخارات الفاسدة وهذا موجود بالقسطنطينية وأنطاكية أيضاً.

وفي الكوفة أن أصدق ما يقال في أهل بلدها: الكوفي لا يوفي.

وفي البصرة أن للغربان بها مسوناً ويقع على كل نخلة قد صرم نخلها، ولا يقع على ما لم يصرم، ولو بقي عليها عذق واحد. ومن عجائبها أيضاً أن التمر يكون مصبوباً في بيادره، فلا يقع على شيء منه ذبابة لا في ليل ولا في نهار. وأهل البصرة يتخذون المظلات على التمر والعجوة، خوفاً عليها من الجفاف، ومن شأن الذباب الفرار من الشمس إلى الظل، فلا يوجد في تلك الظلال شيء منه البتة، فيتوهم المتوهم أن هاتين الحائتين من طِلَّسم له من الخاصية ما يمنع الغربان والذباب، وليس الأمر كذلك، وإنما هو من حماية الله ووقايته[(٤)].

وفي جزيرة العرب أن مكة يربع الذئب فيها الظبي ويعارضه ويصيده، فإذا دخل الحَرَم كَفَّ عنه، ومنها أنه لا يسقط على الكعبة حمام إلا إذا كان عليلاً، وأن من عادة الطير إذا

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٦٣.

(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٦٢.

(٣) هذه رواية النويري ج ١ ص ٣٦١ وفي الأصل: «النمة» والقفمة من الطيب: رائحته.

(٤) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٥٩

حاذت الكعبة أن تفترق فرقتين لا تعلوها.

وفي المدينة على ساكنها الصلاة والسلام أن العطر والبخور يوجد لهما من الضوع والرائحة الطيبة أضعاف ما يوجد في سائر البلاد، ولها في نفسها قـغمة[١] طيبة ورائحة عطرية، وإن لم يكن فيها شيء من الطيب البتة، ولهذا سميت طَيْبة، وطابة.

قال الشاعر في ذلك:

[كامل]:

مـاذا على من شَمَّ تُرْبَـةَ أحـمـد
أن لا يَشَمَّ مَـدَى الزمان غواليـا[٢]

وفي اليمن أن السيف متى قُلع بالهند وطبع باليمن، فناهيكَ به جودة[٣]!

وفي الموصل قال الجاحظ: من أقام بالموصل حولا ثم تفقد قوته وجد فيها فضلا.

وفي المصيصة أن من أطال الصوم بها هاجت به المرة السوداء وربما جن.

وفي مصر أن أهلها مستغنون عن كل بلد، حتى لو ضرب بينها وبين [بلاد] الدنيا بسور استغنى، أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا، وفيها ما ليس في غيرها، وهو [حيوان] السقنقور والنمس، ولولاه لأكلت الثعابين أهلها، وهو لها كقنافذ سجستان لأفاعيها. والسمك الرعّاد والحطب السنْط الذي لا رماد له، ويقال: إنه الأبنوس، ولكن البقعة قصرت به عن الكيان، ودُهْنُ البَلَسان والأفيون، وهو عصارة الخشخاش واللبخ، وهو ثمر في خلقة اللوز إلا أن المأكول منه الظاهر. والأترج الأبلق. والزُّمُرُّد. وأهلها يأكلون صيد البحر الرومي وبحر فارس طريا. وأن صيفها خريف، وشتاءها ربيع، وما ينقطع في سائر البلاد يوجد فيها في الحر، وكذلك في البرد لاعتدال حرها وبردها، إذ هي في الإقليم الثالث والإقليم الرابع، فسلمت من حر الأول والثاني، وبرد السادس والسابع[٤].

(١) في الأصل: «في نفسها نعمة» والمثبت رواية النويري.

(٢) رواية أحد الأصلين: «ما على من مس تربة احمد أن لا يمس مدى الزمان غواليا».

وورواية ثانيهما: «ما على من مس تربة احمدا أن لا يمس طول الزمان غواليا» والمثبت رواية النويري ج ١ ص٣٢٣ جـ ٣٢٤.

(٣) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٤٠.

(٤) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٥٥، ٣٥٦.

ومما وصفت به أن صعيدها حجازي، ينبت النخل والمُقْل والموز والعُشَر والقَرَظ. وأسفل أرضها شامي يمطر بمطر الشام، ويقع فيه الثلوج، وينبت التين والزيتون والعنب والجوز واللوز والفستق وسائر الفواكه(١).

فصل: ومن خصائص البلاد أن أصحاب التواريخ حكوا في كتبهم أن عمرو بن أبي عامر [مُزَيْقِيا] قال لقومه لما تحققوا كونَ سيلِ العَرِم: من كان ذا شاءٍ وبَعِيرٍ وجملٍ غير شَرُود،(٢) فيلحق بالشِّعب من كُوفان فلحقت به هَمْدان، ومن كان ذا سيامة وصبر على أزمات الدهر فيلحق ببطن مَرّ، فلحقت به خُزاعة ومن كان يريد الراسخات في الوَحَل المطعمات في المَحْل، فليلحق بيثرب ذات النخل، فلحقت به الأوس والخزرج. ومن كان يريد الخمر والخَمير والأمر والتأمير، فليلحق بالشام، فلحقت به غَسّان. ومن كان يريد الثياب الرِّقاق، والخيول العِتاق، والذهب والأوراق فليلحق بالعراق فلحقت به لَخْم(٣).

فصل: الهند: بحرها دُرّ، وجبلها ياقوت، وشجرها عُود، وورقها عطر(٤) وكرمان ماؤها وَشَل، وثمرها دَقَل، وعودها بهل.

وخراسان: ماؤها جامد، وعودها جامد. وعمان حرها شديد وصيدها عتيد، والبحرين كناسة بين المصرين. والبصرة ماؤها ملح، وحربها صلح، مأوى كل تاجر، وطريق كل عابر، والكوفة ارتفعت عن حر البحرين وسلمت عن برد الشام وواسط: جنة بين حماة، والشام عروس بين نساء جلوس، ومصر هواؤها راكد وحرها متزايد، تطول الأعمار فيها وتسود الأبشار.

فصل: ونذكر خصائص البلاد العَمَليّة والعِلْمِيّة، فيقال: حكماء يونان وأطباء جُنْدَيسابور وصاغة حَرّان، وحاكة اليمن، وكتاب السواد.

فصل: ونذكر خصائص البلاد في الأحجار، فيقال فَيْرُوزَج نيسابور، وياقوت سرنديب، وزبرجد مصر، وعقيق اليمن، وجَزْع ظَفَار، وبجادي بلخ، ومَرْجان إفريقية.

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٥٦.

(٢) في الأصل: «وجمل شديد» والمثبت رواية النويري.

(٣) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧١.

(٤) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٦٦.

فصل: نذكر خصائص البلاد في الحيوانات ذوات السموم، فيقال: أفاعي سجستان، وثعابين مصر، وعقارب شَهْرَزُور، وجَرَارات الأهواز، وبراغيث إرمينية، وفأر أرْزَن، ونمل ميافارقين وذباب تل فافان وأقداح بلد[١].

فصل: ونذكر خصائص البلاد في الملابس، فيقال برود اليمن، وقصب مصر، وديباج الروم، وخز السوس، وحرير الصين، وأكسية فارس، وحلل أصبهان، وسقلاطون بغداد، وعمائم الأُبلّة ومنَيّر الري، ومُلْحَم مَرْو[٢].

فصل: ونذكر خصائص البلاد في الأوبار، فيقال سنجاب خِرْخِيز، وسَمُّور بُلْغار، وثعالب الخَزَر، وحَوَاصل هراة، وقاقُم التغزغز[٣].

فصل: ونذكر خصائص البلاد في المركوب، فيقال: عِتَاق البادية، ونَجَائب الحجاز، وبراذين طَخَارستان، وحَمير مصر، وبِغَال بَرْذَعة[٤].

فصل: ونذكر خصائص البلاد في الحَلْواء، فيقال سكر الأهواز، وعسل أصبهان، وفانيد ماسكان[٥].

فصل: ونذكر خصائص البلاد في الثمار فيقال رطب العراق، وتَمْر كَرْمان، وعُنَّاب جُرْجان، وإِجّاص بُسْت، وسَفَرْجل نيسابور، وتفاح الشام، ومِشْمِش طوس، وكمثرى نَهَاوَنْد، وأُتْرجّ طبرستان، ونارَنْج البصرة، وتين حلوان، وعنب بغداد، وقِشمش[٦] هراة، وموز اليمن، وجوز الهند وبطيخ خوارزم، وباقلاّ الكوفة[٧].

فصل: ونذكر خصائص البلاد في الرياحين فيقال نَرْجِس جُرْجان، ووَرْد جُور، ونَيْلُوفر السِّيروان ومنثور بغداد، وزعفران قُمّ وشاهسفَرَم سمرقند[٨].

---

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧٠.
(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٦٩.
(٣) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٦٩.
(٤) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧٠.
(٥) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧٠.
(٦) تحرف في الأصل إلى: «مشمش».
(٧) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧١.
(٨) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧١ والشاهسفرم لدى ابن البيطار ج ٢ ص ٥٠: «نوع من الحبق دقيق الورق جداً، عطر الرائحة».

فصل: ونذكر خصائص البلاد في الأمراضِ فيقال: طواعين الشام وطِحَال البحرين، وحُمى خيبر، ودَمَامِيل الجزيرة، وجنُون حمص، وعِرَق اليمن، ووَبَاء مصر، وبِرْسام العراق، والنار الفارسية، وقُرُوح بَلْخ[1].

فصل: ونذكر خصائص البلاد في الآثار العلوية فيقال شتاء إرمينية، ومصيف عمان، وصواعق تهامة، وزلازل دَبيل[2].

فصل: ونذكر خصائص البلاد في الخَلْق والأخلاق، فيقال: شُقْرة الروم، وسَوَاد الزَّنج، وغِلَظ الترك، ودَمَامة الصين، وقِصَرَ يأجوج ومأجوج، وخبل الزنوج[3].

وقال الجاحظ في «كتاب الأمصار»: السياسة بالبصرة، والفصاحة بالكوفة، والتَّخنيث ببغداد، والغِيّ بالري، والجفاء بنيسابور، والحسن بهراة والطَّرمذة بسمرقند، والمروءة ببلخ، والبخل بمرو، والعجائب بمصر.

وحكي عن الحجاج أنه سأل ابن القِرِّيَّة[4] عن طبائع أهل البلاد وأخلاقهم، فقال: أهل الحجاز أسرع الناس إلى الفتنة وأعجزهم عنها، رجالها حفاة، ونساؤها كساة عراة، وأهل اليمن أهل سَمْع وطاعة، ولزوم الجماعة، وأهل عُمَان عرب اسْتَنْبَطُوا، وأهل البحرين نَبَطٌ اسْتَعربوا. وأهل اليمامة أهل جَفَاء واختلاف في الرأي، وأهل فارس أهل بأس شديد، وعزّ عتيد، وأهل العراق أبحث الناس عن صغيره وأضيعهم لكبيره[5]، وأهل الجزيرة أشجع الفرسان، وأقتل للأقران. وأهل الشام أطوعهم للمخلوق، وأعصاهم للخالق. وأهل مصر عبيد لمن غلب، أكيس الناس صغارا، وأجلهم كبارا[6].

وقال الجاحظ: كنا نُعَلَّم في المكتب كما نُعَلَّم القرآن: احذروا حماقةَ أهل بخارى، وغلّ أهل مَرْو، وشَغَب أهل نيسابور، وحسد أهل هراة، وحِقْد أهل سِجِسْتان[7].

ويقال: إن القدماء اعتبروا أخلاق أهل البلاد، وما امتاز به بعضها عن بعض من

---

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧١.
(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧١.
(٣) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧١.
(٤) تحرف في الأصل إلى: «العربة» وصوابه لدى النويري.
(٥) في الأصل: «صغيرة... لكبيرة» والمثبت رواية النويري.
(٦) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٤.
(٧) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٤.

الطبائع، فوجدوا أخصب بقاع الأرض ثمانية مواضع: أرمينية، وأذربيجان، وماه دينور، وماه نهاوند، وكرمان، وأصبهان، وقومس، وطبرستان[(١)].

ووجدوا أخف بقاع الأرض ماء ثمانية مواضع: دجلة، والفرات، وزندرود أصبهان، وماء سوران، وماء هقبجان، وماء جنديسابور، وماء بلخ، وماء سمرقند[(٢)].

ووجدوا أوبأ بقاع الأرض ستة مواضع: النوبندجان، وسابور خواست، وجرجان، وحلوان، وبرذعة، وزنجان[(٣)].

ووجدوا أعقل أهل البلاد [تسعة] أهل أصبهان، والحيرة، والمدائن، وماه دينور، ونيسابور، وإصطخر، والري، وطبرستان، ونشوى، وهي التي تسمى نقجوان[(٤)].

ووجدوا أسرى أهل بقاع الأرض سبعة مواضع: أهل طوسفون - وهي المدائن وبلاشون، وما سبذان، ونهاوند، وأصبهان، والري، ونيسابور[(٥)].

ووجدوا أمكر أهل بقاع الدنيا: أهل ماسبذان، ومهرجانقذق وسورستان، والري، والرويان، وأذربيجان، والموصل، وارمينية، وشهرزور، والصامغان[(٦)].

ووجدوا أبخل أهل بقاع الأرض: أهل مرو، وإصطخر، ودارا بجرد، وخوزستان، وماسبذان، ودبيل، وماه دينور، وحلوان[(٧)].

ووجدوا أسفل أهل بقاع الأرض [أربعة] أهل البندجان، وبادرايا وباكسايا، وخورستان[(٨)].

ووجدوا أقل أهل بقاع الأرض نظرا في العواقب أهل [سبعة مواضع]: طبرستان، وارمينية، وقومس، وكرمان، وهراة، ومكران، وشهرزور[(٩)].

---

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٥.
(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٥.
(٣) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٥.
(٤) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٥ وما بين حاصرتين منه.
(٥) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٥.
(٦) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٦.
(٧) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٦.
(٨) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٦ وما بين حاصرتين منه.
(٩) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٩٦ وما بين حاصرتين منه.

فصل فى المبانى:

ومن المبانى العظيمة سد ذى القرنين الذى بناه على يأجوج ومأجوج: وصفته على ما حكاه ابن خُرْدَاذْبَه[١] أن مكانه جبل أملس مقطوع بواد عرضه مائة وخمسون ذراعا، وفى جانب الوادى عضادتان مبنيتان عرض كل عضادة خمسة وعشرون ذراعًا، وكل ذلك مبنى بلبن من حديد مغيب فى نحاس فى سمك خمسين ذراعًا، وعلى العضادتين دَرْوَنْد حديد طرفاه فى العضادتين، طوله مائة وعشرون ذراعا، وفوق الدَّرْوَنْد بناء بتلك اللبن من الحديد المغيبة فى النحاس إلى رأس الجبل، وارتفاعه مد البصر، وفوق ذلك شُرَّافات من حديد، فى طرف كل شُرَّافة قرنان ينثنى كل واحد منهما إلى صاحبه، وبين العضادتين باب من حديد بمصراعين كل مصراع خمسون ذراعًا فى خمسة أذرع، وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع فى غلظ باع فى الاستدارة، وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعًا، وعتبة الباب عشرة أذرع بسط مائة ذراع، سوى ما تحت العضادتين، يقال إن آلات البناء التى بنى بها هذا السد، وهى مغاريف، وبقية لبن كل ذلك من حديد، وإن كل لبنة ذراع ونصف فى مثل ذلك، فى سمك شبر قد ألصق الصدأ بعضها ببعض.

وبنى قناطر سَدّ اللِّبن[٢] من أرض شَرْوَان إلى بلاد اللاَّن، وبينهما مائة فرسخ وصل فيه بين شعاب جبل القَبْق وهو جبل عظيم، قد اشتمل على اثنتين وسبعين أمة، لكل أمة لسان وملك، لا يعرف بعضهم بعضًا لكثرة غياضه وأشجاره، وعظم صخره وأحجاره، وتسلسل مياهه وأنهاره، يكون مسافته طولاً وعرضًا نحو الشهرين. ومبدأ السور من جوف بحر الخزر على مسافة ميل مارا إلى البر، ثم يمر كما قلنا إلى أن يتصل بقلعة طبرشروان[٣]، بناه بالصخر والحديد والرصاص على أزقاق البقر المنفوخة، فلما ارتفع البناء نزلت تلك الأزقاق إلى أن استقرت فى قعر البحر، فغاصت الرجال إليها فشقتها وتمكن البناء على الأرض، وجعل بين كل ثلاثة أميال أو أقل أو أكثر، بابا من حديد على

---

(١) المسالك والممالك ص ١٦٢ - ١٦٩ وانظر فى ذلك أيضا ياقوت ج ٣ ص ١٩٩.

(٢) هذه رواية المخطوط ومثلها لدى النويرى، وفى المطبوع: «البر».

(٣) هذه رواية المخطوط ومثلها لدى النويرى، وفى المطبوع: «طبرستان».

حساب الطريق الذي جعل من أجله الباب، وبنى عليه حصنًا وأسكن فيه من يحفظ ذلك الباب ويحرسه[١].

ويقال في سبب بنائه لهذا السور: إنّ الخزَر كانت تعبر في سلطان فارس إلى أن تبلغ همذان والموصل وتعم البلاد بالعيث والفساد[٢].

ومن مشهور مباني العرب غُمْدان وكان بصنعاء: قال الجاحظ: أحبت العرب أن تشارك الفرس في البناء وتتفرد بالشعر، فبنوا غمدان، وكعبة نَجْران وحصن مارِد والحصن الأبلق. ويزعم بعض الأخباريّين أن بانيه هو حام بن نوح عليه السلام. ويزعم آخرون أن بيوراسب بناه على اسم الزهرة[٣].

وذكر ابن هشام أن الذي أسسه يعرب بن قحطان وأكمله بعده وأجمله وائل بن حمير ابن سبإ بن يعرب. وكانت صفته على ما نقل من الكتب المدونة في عجائب الدنيا: مُربَّعًا، أحد أركانه مبنى بالرخام الأبيض، والثاني بالرخام الأصفر، والثالث بالرخام الأخضر، والرابع بالرخام الأحمر. فيه سبعة سُقُوف طِباقًا، ما بين السقف والآخر خمسون ذراعًا، وجعل على كل ركن تمثالُ أسد من نحاس، إذا هبت الريح دخلت من دُبُره وخرجت من فيه، فيسمع لها صوت كزئير الأسد[٤].

وقال ابن الكلبي: كان على كل ركن من أركان غُمْدان مكتوب بالحميرية: اسلَمْ غُمْدان مُعاديك مقتولٌ بسيف العُدْوان[٥].

ويقال: إن سليمان عليه السلام، أمر الشياطين أن يبنوا لِبلْقيسَ أربعة[٦] قصور: غُمْدان، وصِرْواح، وبينون [وسَلْحين. وكلها باليمن[٧]].

وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لا يستقيم أمر العرب ما دام فيها غُمْدانها، وهذا القول هو الذي حض عثمان رضي الله عنه على هدمه، وأثره تل عال مطل على البلاد، قرب الجامع[٨].

---

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧٩.
(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٧٩.
(٣) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٨٤.
(٤) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٨٤.
(٥) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٨٤.
(٦) هذه رواية النويري، وفي الأصل: «ثلاثة».
(٧) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٨٤ وما بين حاصرتين منه.
(٨) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٨٥

ومن المباني التي كانت باليمن القَلِيس، وهي كنيسة بناها أبرهة بصنعاء وأراد أن يصرف إليها حج العرب، ونقل إليها الرخام المُجَزَّع، والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس وكان منها على فرسخ، وكان أراد أن يرفع من بنائها حتى يشرف منها على عدن[١].

فلما أهلكه الله تعالى، وفرق ملكه، أقفر ما حول هذه الكنيسة، وكثرت حولها السباع والحيات، وكان كل من أراد أن يأخذ منها شيئًا أصابته الجن، فتخافها الناس، ولم يستطع أحد أن يأخذ شيئًا مما كان فيها من صلبان الذهب والفضة المرصعة بأنواع الجواهر وأصناف الياقوت، وبقيت كذلك إلى زمان أبي العباس السفاح، فذكر له أمرها وما يتهيب من جنها، فلم يرعه ذلك، فبعث إليها من خربها وأخذ ما كان فيها.

وللفرس من المباني شاذروان تستر، بناه سابور ذوالأكتاف بالصخر وأعمدة الحديد وبلاط الرصاص: جعله سكرا يربو الماء عنده إذا وصل إليه من بين دجيل حتى يطفو عليه ويدخل المدينة لأنها مرتفعة على الأرض، وطول هذا الشاذروان ميل[٢].

وقصر بَهْرام جُور، قرب همذان، وهو مبني بالحجارة المهندمة[٣] لا تتبين فصولها، حتى يتوهم من رآه أنه حجر واحد، على كل ركن منه صورة جارية قد برزت من نفس الحجارة[٤].

وقصر اللصوص بقَرْمِيسين[٥]، وهو ذو أبواب شاهقة وأسطوانات محكمة من الحجارة السود التي لا يعمل الحديد فيها شيئًا، والفرس تزعم أنه لا أساطين مثل هذه الأساطين ولم ير أحسن ولا أعجب من أساطين هذا القصر.

ومن مباني الروم قنطرة سَنْجَة، وهي على نهر عظيم يسمى بهذا الاسم، لا يتهيأ خوضه لأن قراره رمل سائل، كلما وطئه إنسان برجله سال، وهو ما بين حصن منصور

---

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٨٢.

(٢) معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٢٩.

(٣) في المطبوع: «المهندمة» والمثبت رواية المخطوط وياقوت، وهَنْدَم الرجل الأشياء هندمة: أصلحها على مقدار مناسب ونظام حسن.

(٤) معجم ياقوت ج ٤ ص ٣٥٦.

(٥) هذه رواية القزويني في آثار البلاد ص ٤٣٣ وفي الأصل: «قرميس».

وكَيْسُوم من ديار بكر وهـذه القنطرة طاق واحد مـا بين جدرانهـا مائتـا خطوة، حجـارتها مهندَمَة[١]، يكون طول الحجر منها عشرة أذرع في ارتفاع خمسة أذرع[٢].

ومن المبـاني القدم التي بمصـر حائط العجـوز، وهي دَلُوكا أحد ملوك مـصر، وهذا الحائط من العريش إلى أسوان، شاملا أعمـال مصر من الجانب الشرقي. وتزعم القبط في سبب بنائها لـه، أن الله تعالى لما أغرق فرعـون وقومه، خافت دلوكا عـلى مصر أن تطمع الملوك فيها، فبنته وزوجت النساء من العبيد حتى تكثر الذرية. ويقال أيضًا في سبب بنائه: إنها ولدت ولدًا فأخذت الرصـد لمولده، فرأت التمساح يقتله، فـبنت هذا الحائط وقاية له من التمساح، فلمـا شب الغلام رأى في مولده ما تحرز عليه منـه، فأحب أن يراه فَصُوِّر له من خشب، فلما رآه هاله منظره، واستولى عليه الوهم والفزع فمات[٣].

ومن بناء مصر أيضًا الأهرام التي بأعـمال مصر، وهي أهرام كثيرة، وأعظمـها الهرمان اللذان بجهـة مصـر بقرب النيل. يقال: إن بـانيهمـا سُورِيد بن سهـلوق بن سرناق[٤] قبل الطوفان.

ويقال - إن هرمس المثلث بالحكمة، وهو الذي يسميه العبرانيون أخْنَخ، وهو إدريس عليه السلام استدل من أحوال الكواكب على كَوْن الطوفان، فأمر ببناء الأهرام وأن يدع فيها الأموال وصحائف العلوم وما يخاف عليه من الذهاب والدثور. ويقال: إن بانيها جعل لهما أبوابًا على آزاج مـبنية بالحـجارة في الأرض، طول كل أزَجٍ عـشرون ذراعًـا وكل باب من حجر وحـديد يدور بلولب، إذا أطبق لم يعلم أنه باب. فأزَجُ الشرقي في ناحـية الجنوب، وأزَجُ الغربي في ناحـية المغرب، يُدْخَل من كل باب منهـا إلى سبعة بيـوت، كل بيت منها

(١) هذه رواية ياقـوت والقـزويني في آثار البلاد ص ٢٧١ والـنويري، ومثلهـا في المـخطوط، ورواية المطبوع: «مهندسة».

(٢) معجم ياقوت ج ٣ ص ٢٦٤، آثار البلاد ص ٢٧١، نهاية الأرب ج ١ ص ٣٨٣.

(٣) المستطرف ص ٥٤٥، نـهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٢ وبهامشه: «لم يرض ابن فـضل الله بذكر هذه الخرافة في كـتابه، وقد وصف لنا جزءا من هذا السور (انظر مسـالك الأبصار المطبوع، ج ١ ص ٢٣٩).

(٤) لم تتفق المصادر على هـذه الأسماء، بل كل مصدر يخالف الآخر هنا والثـابت الآن تاريخيا بعد الاستكشافات وقراءة الحروف الهيروغليفـية أن باني الهرم الأكبر خوفو، وباني الهرم الثاني الملك خفرع، وباني الهرم الثالث الملك منقرع

على اسم كوكب من الكواكب السبعة، وكلها مقفلة بأقفال. وحِذاءَ كل بيت منها صنم من ذهب مجوف، وفي جهته كتابه بالمُسْنَد، إذا قرئت انفتح فوه فتجد فيه مفتاح ذلك القفل، فيفتح بها، والقبط تزعم أن بالهرمَ الصغير الملون قبوراً، والهرم الشرقي فيه سوريد الملك، والهرم الغربي فيه أخوه، هرجيب، وبالهرم الملون أفروهر بن هرجيب.

والصابئة تزعم أن هذه القبور أحدهما قبر غالمور وهو عند شيث، والآخر قبر هرمس، وإليه تنسب الصابئة على قول من يزعم ذلك، وهم يحجون إليها ويذبحون عندها الديكة ويزعمون أنهم يعرفون عند اضطرابها حالة الذابح وما يريدون من علمه من الأمور المغيبة[1].

ورأى هذه الأهرام بعض العقلاء فقال: كل بناء يخاف عليه من الدهر إلا هذا، فإني أخاف على الدهر منه، ونظم هذا المعنى الفقيه عمارة اليمنى في قوله:

[طويل]:

خَلِيلَيَّ مَا تَحْتَ السمَاءِ بَنِيةٌ
تماثل في إتقانها هَرَمَيْ مِصْرِا
بناءٌ يخَافُ الدهرُ منه، وكُلُّ ما[2]
على ظاهر الدنيا يَخَافُ من الدهرِ
تَنَزّه طَرْفي في بديع بنائها
ولم يَتَنَزّه في المراد بها فِكْرِي[3]

وقال أبو الطيب المتنبي يذكرهما في معارض الاعتبار[4]:

[الكامل]:

أين الذي الهرمان من بُنْيانه؟
ما قومه؟ ما يومه؟ ما المَصْرَعُ؟

---

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٨٨ وما بعدها.

(٢) هذه رواية النويري والمقريزي. وفي المخطوط: «بناء يخاف من الدهر وكلماه» وفي المطبوع: «فليس يخاف الدهر عنه وكلماه».

(٣) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٠، المواعظ ج ١ ص ١٢١.

(٤) الديوان ج ٤ ص ٢٢٢.

بتخلف الآثار عن أصحابها
حينا ويُدركها الفناءُ فتتبع

وقال أمية بن عبد العزيز[1] رحمه الله:

[طويل]:

بعيشك هل أبصرت أحسن منظرًا
على طول ما عاينت من هرمَى مصرِ؟
أنافا بأعنان السماء وأشرفا
على الجو إشراف السِّماك أو النَّسرِ
وقد وافيا نَشْزًا من الأرض عاليا
كأنهما ثديان قاما على صدرِ

وقال آخر فيهما أيضًا هذه الأشعار[2]:

[كامل]:

أُنظر إلى الهرمين إذ برزا
للعين في علْوٍ وفي صَعَدِ!
وكأنما الأرض العريضة إذ
ظمئت لفَرْط الحر والومَدِ
حسرت عن الثديين بارزة
تدعو الإله لفُرقة الولدِ
فأجابها بالنيل يُوسِعها
ريًا ويَشْفيها من الكمَدِ

ومن الرسالة لضياء الدين بن الأثير[3] يصفها: ولقد شاهدت منها بلدًا يشهد بفضله

---

(١) الرسالة المصرية ص ٢٦.

(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩١

(٣) ابن الأثير ولد سنة ٥٥٨ هـ، وأبو حامد الغرناطي توفي سنة ٥٦٥ أي سن ابن الأثير لم تتجاوز ٦ سنوات تقريبًا عند وفاة أبي حامد، مما يشعر بأن هذا من إضافات النساخ.

على البلاد، ووجدته هو المصر، وما عداه، فهو السواد، فما رآه راءٍ إلا ملأ عينه وصدره، ولا وصفه واصف إلا علم أنه لم يقدره قدره، وبه من عجائب الآثار، ما لا تصفه العين، فضلاً عن الإخبار. من ذلك الهرمان اللذان هرم الدهر، وهما لا يهرمان، فقد اختص كل منهما بعظم البناء، وسعة الفناء، وبلغ من الارتفاع غاية لا يبلغها الطير على بعد تحليقه، ولا يدركها الطرف على مدة تحديقه، فإذا أضرم برأسه قبس ظنه المتأمل نجماً، وإذا استدارت عليه قوس السماء كان لها سهماً.

[أهرام دهشور]

وبدهشور أهرام لم تهرم حجارتها، بناها شداد بن عديم بن البودشير بن قفطيم بن مصريم، باني مصر.

[ملعب انصنا]

ومن المباني القديمة التي بمصر: ملعب أنصنا، وكان مقياساً للنيل، وينسب إلى أشمون بن قفطيم بن مصريم. وبناؤه مدور كأنه بركة، وعليها عمودان بين العمود والآخر مائة خطوة. وكان النيل يدخل إليه من فوهة فيه عند زيادة النيل، فإذا بلغ الحدّ الذي يحصل به الري، جلس الملك في مشترف له. ويصعد قوم إلى رءوس الأعمدة فيتعادون عليها ما بين ذاهب وآت. فمن زلت قدمه وقع في البركة[٢].

[مدينة عين شمس]

ومن المباني التي درست آثارها وبقيت أخبارها: مدينة عين شمس، وكانت مصر فرعون موسى. وكان بها هيكل الشمس فخرب. والفرس تزعم أن هرسيك بناها. وكان قد بقي منها عمودان على رأس كل واحد منهما صورة إنسان على دابة، وعلى رأسيهما شبه الصومعتين من نحاس. فإذا جرى النيل[٣]، قطر من رأس كل واحد منهما ماء لا يتجاوز

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٢. (٢) نهاية الأدب ج ١ ص ٣٩٣.

(٣) اختلفت المصادر بخصوص هذه العبارة، حيث وردت في الأصل: «فإذا كان المليل» ولدى البكري في المسالك والممالك ج ٢ ص ٦١٣: «فإذا كان آخر الليل» ولدى الكندي في فضائل مصر المحروسة ص ٣٤: «فإذا جرى النيل» ومثلها لدى ابن زولاق في فضائل مصر ص ٦٩ وياقوت في معجم البلدان ج ٤ ص ١٧٩، والقزويني في آثار البلاد ص ٢٢٥. وابن عبد الظاهر -

نصف العمود الذي هو مركب عليه. والموضع الذي يصل إليه الماء لا يزال أخضر رطبا[١].

وتقول القبط: إن هذين العمودين من بقايا أساطين ملعب لآخر ملوكهم الأول. وقد وقع العمودان في عصرنا بعد الستين وخمسمائة.

ونثرت حجارتهما، ودرست بهما الدور.

ويقول أهل مصر: إن الشمس إذا دخلت دقيقة من [برج] الجدي وهو أقصر يوم في السنة، انتهت إلى الجنوبي منهما فطلعت على قمة رأسه، ثم إذا دخلت دقيقة من [برج] السرطان، وهو أطول يوم في السنة انتهت إلى الشمال منهما، فطلعت على قمة رأسه. وهما منتهى الميلين[٢].

[البرابي]

ومن المباني التي بمصر: البرابي، وهي بيوت حكمة القبط. ويقال: إنه كان بكل كُور من كُوَر مصر بِرْبَاةٌ، يجلس فيها كاهن على كرسي من ذهب.

ومن أعجبها برباةُ إخميم. وهي مبنية بحجر المَرْمر، [طول] كل حجر خمسة أذرع في في سمك ذراعين. وهي سبعة دهاليز. يقال: إن كل دهليز [منها] على اسم كوكب، مسقوفة بالحجارة المهندمة المدهونة باللازورد وغيره، كأنما فرغ منها المُزَوِّق. وجدْران هذه الدهاليز مصورة بأنواع التصاوير. ويقال: إنها رموز على علوم القبط، وهي: الكيمياء، [والسِّيمياء] والطِّلَّسْمات، والطب. وأهل مصر يزعمون أن ذا النون قد علم الكيمياء منها[٣].

* في الروضة البهية ص ١٢٠ وعبارته: «فإذا جاء النيل» وذكر محققه بالهامش أن رواية الأصل: «الليل» ولدى المقريزي في المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٣٠: «فإذا جاء النيل» ولدى السيوطي في حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٧: «فإذا جرى النيل» وقد آثرت الرواية التي وردت فيها كلمة «النيل».

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٣ و ٣٩٤.

(٢) فضائل مصر لابن زولاق ص ٦٩. المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٣٠، بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ١٥ وما بين حاصرتين منه.

(٣) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٤ والخبر لديه بالنص كما هنا. وما بين حاصرتين منه.

[منارة الإسكندرية]

ومن عجائب مباني مصر: منارة الإسكندرية، وهي مبنية بحجارة مهندمة مضبَّبة بالرصاص، على قناطر من زجاج، والقناطر على ظهر سَرَطان من نحاس. وفيها نحو ثلاثمائة [بعضُها فوق بعض] تصعَدُ الدابة بحملها إلى سائر البيوت من داخلها. وللبيوت طاقات يُنظر منها إلى البحر[١].

وبين أهل التاريخ خلافٌ فيمن بناها، فزعم قوم أنها من بناء الإسكندر بن فليبّس المقدوني، وزعم آخرون أنها من بناء دَلُوكا، ملكة مصر[٢].

ويقال: إنه كان على جانبها الشرقي كتابة وإنها نقلت فوجد فيها: بنت هذه المنظرة[٣] قرتنا بنت مرتيوس اليونانية لرصد الكواكب[٤].

ويقال إن طولها ألف ذراع، وكان في أعلاها تماثيل من نحاس، منها تمثال قد أشار بسبابة يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك، يدور معها حيثما دارت، ومنها تمثال وجهه إلى البحر، متى صار العدو منهم على نحو من ليلة سُمِعَ له صوت هائل يعلَم به أهل المدينة طُروقَ العدو، ومنها تمثال كلما مر من الليل ساعة، صوَّت صوتًا هائلاً مطربًا، ويقال إنه كان بأعلاها مرآة ترى منها قُسْطَنْطِينِيَّة، وبينهما عرض البحر، فكلما جهز الروم جيشًا رُئي فيها[٥].

وحكى المسعودي[٦] أن هذه المنارة كانت في وسط الإسكندرية وأنها تعد من بنيان العالَم العجيب، بناها بعض البَطَالمة من ملوك اليونان، بعد الإسكندر، لما كان بينهم وبين الروم من الحروب في البر والبحر، فجعلوا هذه المنارة مَرْقبًا، وجعلوا في أعلاها مرآة من الأحجار المُشِفَّة، تُشاهَد فيها مراكب البحر إذا أقبلت من رُومية على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها[٧].

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٥ والخبر لديه بالنص. وما بين حاصرتين منه.
(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٥ والخبر لديه بالنص.
(٣) لدى النويري: «القنطرة» والمَنْظَرَة: المَرْقَبة. ولدى المسعودي في مروج الذهب ج ١ ص ٣٧٥ أنها جعلت مرقبا لمن يرد من العدو إلى البلاد.
(٤) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٥ والخبر لديه بالنص.
(٥) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٦ والأخبار لديه بالنص.
(٦) مروج الذهب ج ١ ص ٣٧٨.
(٧) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٦ والخبر لديه بالنص.

فاحتال ملك الروم ـ لما انتفع المسلمون بها مثل ذلك ـ على الوليد بن عبد الملك بأن أنفذ أحد خَواصّه، ومعه جماعة إلى بعض ثغور الشام، على أنه راغب في الإسلام، فوصل إلى الوليد وأظهر الإسلام، وأخرج كنوزًا ودفائن كانت في الشام مما حمله على أن صدقه، ثم قال له: إن تحت هذه المنارة من الأموال والذخائر والأسلحة، دفنها الإسكندر، فجهز جماعة من ثقاته إلى الإسكندرية، لهدم تلك المنارة، وأزال المرآة، ثم فطن الناس أنها مكيدة واستشعر ذلك فيما بينهم، فهرب في مركب كانت موعودة إليه، ثم بنى ما هدم بالجص والآجر والنورة، وطول هذه المنارة في هذا الوقت الذي وضعت فيه هذا الكتاب[1] ـ وهو سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، مائتان وثلاثون ذراعًا، وكان طولها قديمًا نحوًا من أربعمائة ذراع[2].

وكان أحمد بن طولون قد بنى في أعلاها قبة من الخشب ثم هدمت وبنى مكانها مسجدًا في أيام الملك الكامل، صاحب مصر.

ثم إن وجهها البحري تداعى وكاد أن ينقض فرمّ وأصلح، وكان ذاك في أيام الملك الظاهر، ركن الدين بيبرس [المنصوري وقال الوجيه] الدوري يصفها:

[طويل]:

وسامية الأرجاء تُهدي أخا السُّرى
ضياءً إذا ما حِندسُ الليل أظلَمَا
لَبِستُ لها بُردًا من الأُنس صافيًا
فكان بتَذكار الأحبة مُعْلَمَا
وقد ظلَّلتني من ذُراها بقُبَّةٍ
ألاحظ فيها من صِحَابي أنْجُمَا
فخيَّلتُ أنّ البحرَ تحتي غمامةٌ
وأنّيَ قد خيَّمتُ في كَبِد السَّما[3]!

وكان بالإسكندرية الملعب الذي كان يسمى رواق الإسكندرانيين، كان الحكماء يجتمعون فيه فلا يرى أحد منهم شيئًا[4].

(١) المراد به كتاب مروج الذهب للمسعودي.

(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٦.

(٣) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٧ وما بين حاصرتين منه.

(٤) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٨ والخبر لديه بالنص.

صفة منارة الإسكندرية:

التى بناها ذو القرنين عليه السلام، كان علوها أكثر من ثلاثمائة ذراع، مبنية بالصخر المنحوت، مربعة الأسفار، وفوق المنارة المربعة منارة مثمنة مبنية بالآجر، وفوق المنارة المثمنة منارة مدورة، وكانت كلها مبنية بالصخر المنحوت، كل صخرة أكثر من مائتى منّ، وكان عليها مرآة من الحديد الصينى عرضها سبعة أذرع، كانوا يرون فيها جميع من يخرج فى البحر من جميع بلاد الروم، فإن كانوا أعداء تركوهم حتى يقربوا من الإسكندرية، فإذا مالت الشمس للغروب أداروا هذه المرآة مقابلة الشمس واستقبلوا بها السفن، حتى يقع شعاع المرآة بضوء الشفق على السفن فتحترق وهى فى البحر، ويهلك كل من فيها[١].

وكانوا يؤدون الخراج ليأمنوا بذلك من إحراق تلك المرآة لسفنهم.

فلما استفتح الإسكندرية عمرو بن العاص الإسكندرية احتالت الروم بأن بعثوا جماعة من القسيسين المستعربة، وأظهروا أنهم مسلمون، وأخرجوا كتابًا زعموا أن ذخائر ذى القرنين فى جوف المنارة.

فصدقهم العرب لقلة معرفتهم بحيل الروم وعدم معرفتهم منفعة تلك المرآة والمنارة، وظنوا أنهم إذا أخذوا الذخائر والأموال أعادوا المنارة والمرآة كما كانت.

فهدموا مقدار ثلثى المنارة فلم يجدوا فيها شيئًا، وهرب أولئك القسوس، فعلموا حينئذ أنها خديعة، فبنوها بالآجر ولم يقدروا أن يرفعوا إليها تلك الحجارة.

فلما أتموها نصبوا عليها المرآة كما كانت، فصدئت المرآة ولم يروا فيها كما كانوا يرون، وبطل إحراقها فندموا على ما فعلوا وفاتتهم بجهالتهم منفعة عظيمة.

والنصف الأسفل الذى من عمل ذى القرنين يدخل الإنسان من الباب الذى للمنارة وهو مرتفع من الأرض مقدار عشرين ذراعًا يصعد إليه على قناطر مبنية بالصخر المنحوت على هذه الصورة التى أصورها[٢]، فإذا دخل فى باب المنارة يجد على يمينه بابًا آخر،

---

(١) المستطرف ص ٥٤٥.

(٢) انظر شكل رقم (٢).

فيدخل منه إلى مجلس كبير مقدار عشرين ذراعًا مربعًا يدخل فيه الضوء من جانبي المنارة على ما أصوره إن شاء الله تعالى، ويجد فيه بابًا آخر يفضي إلى طريق عن يمين الطريق وعن شماله بيوت كثيرة، كل بيت يدخل فيه الضوء من خارج المنارة، ثم يجد بيتًا كبيرًا كالبيت الأول وطريقًا مثل الأول فيه بيوت كثيرة مفضية إلى مجلس آخر ثالث كبير مثل الذى قبله، ثم طريقًا كالذى قبله، ثم يفضى إلى مجلس آخر رابع مثل الذى قبله، له باب واحد فيحتاج أن يرجع حتى يخرج من الباب الأول وكثير من الجهال يضلون فيه فيهلكون لقلة بضاعة معرفتهم بذلك الترتيب.

وقد دخلتها مرات كثيرة فى سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وإذا خرج الإنسان يعود إلى طريق الصعود إلى المنارة فيمشى فى درج المنارة صاعدًا، فإذا دار حول العجل مرتين وجد أيضًا بيتًا مثل الأول وبيوتًا صغارًا، وفى كل ركن بيتًا كبيرًا كما ذكرته قبل هذا، وهى من عجائب الدنيا وهذه، صورتها وصورة المطلع إلى بابها كما ذكرته.

وقد عملت الجن لسليمان عليه السلام فى الإسكندرية مجلسا من أعمدة الرخام الأحمر الملون بأنواع الألوان الصافى كالجزع اليمانى المصقول كالمرآة إذا نظر الإنسان فيها يرى من يمشى خلفه لصفائها[1]. وعدد الأعمدة ثلاثمائة أو نحوها، كل عمود ثلاثون ذراعًا على قاعدة من رخام، وعلى رأسه قاعدة أخرى من رخام فى غاية الإحكام، وفى وسط ذلك المجلس عمود من رخام طوله مائة ذراع وأحد عشر ذراعًا ملونًا كسائر الأعمدة، وكان قد قطعت الجن سقف ذلك البيت الذى هو مجلس سليمان من حجر واحد أخضر مربعًا، فلما بلغهم موت سليمان عليه السلام القوه على جانب النيل فى آخر ولاية مصر.

ومن جملة تلك الأعمدة التى فى مجلس سليمان عمود رأسه يتحرك شرقًا وغربًا بطلوع الشمس وغروبها، يشاهد حراكها الناس ولا يدرون ما سبب حركته.

وكذلك فى قسطنطينية أيضًا منارة من الصخر على أربعة أعمدة من الرخام، يتحرك أيضًا شرقًا وغربًا يشاهد حركتها الناس، ترتفع قاعدتها من جانب إلى جانب آخر، فيدخل الناس أنواع الآجر والخزف والحجارة تحت القاعدة، فإذا مالت عليه سحقته. يفعل الناس ذلك كل يوم، ولا يدرى ما سببه إلا الله تعالى، وهى حكمة عجيبة.

---

(١) المستطرف ص ٥٤٦.

وفي مصر بموضع يقال له عين شمس منارة مربعة علوها مقدار مائة ذراع من الرخام المجزع الصافي قطعة واحدة محددة الرأس على هذه الصورة[١]، على قاعدة من الرخام كالبيت، وعلى رأسها غشاء من صفر كالذهب حسنا فيه صورة إنسان على كرسي مستقبل مشرق الشمس، ويخرج من تحت ذلك الغشاء الصفر ماء يسيل على ذلك الحجر إلى أن ينتهي مقدار عشرة أذرع في رؤية العين، وقد نبت من ذلك الماء على ذلك الحجر شيء أخضر كالطحلب يراه الناس ولا يبرح لمعان الماء على تلك الصخرة أبدًا صيفًا وشتاء[٢].

وقد رأيته مرات، وأهل مصر يقولون: ما زلنا نرى هذا الماء صيفًا وشتاء لا ينقطع ولا يصل إلى الأرض منه شيء، وهي من العجائب.

وفي الجانب الغربي من مصر بنيان يعرف بالأهرام مربع الجملة مثلث الأوجه على هذه الصورة[٣]، وعددها ثمانية عشر هرمًا.
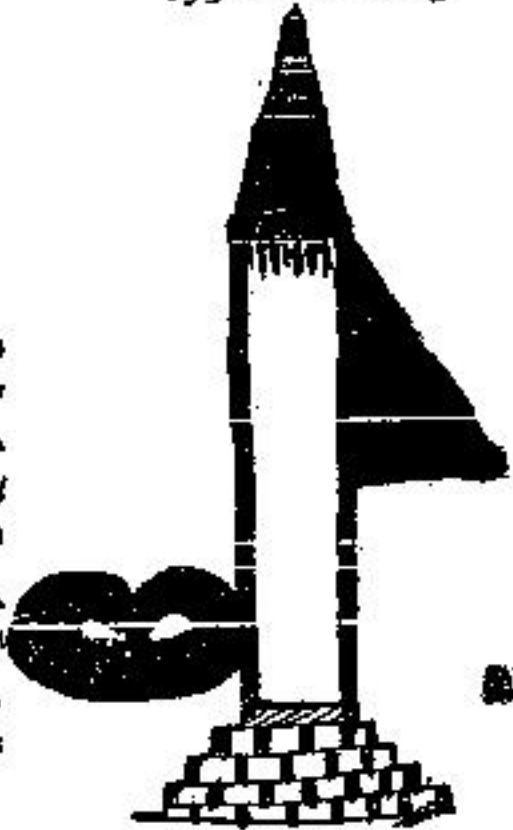
وفي مقابلة مصر الفسطاط ثلاثة أهرام أكبر هذه الثلاثة دورة ألفي ذراع، في كل وجه مائة ذراع، وعلوه خمسمائة ذراع، وقد ذهب المأمون إلى مصر حتى يشاهدها وفتح منها هرمًا واحدًا ألينها حجارة، وكل حجر من حجارتها ثلاثون ذراعًا في غلظ عشرة أذرع، وقد أحكم إلصاقه ونحته وتسويته ما لا يقدر النجار الصانع أن يتخذ من خشب صندوقًا صغيرًا على إحكامه.

ومنها عند مدينة فرعون يوسف عليه السلام أهرام أعظم وأكبر، كل واحد منها دوره ثلاثة آلاف ذراع، وعلوه سبعمائة ذراع من حجارة لا يصنع الحديد فيها شيئًا لقوتها كل حجر خمسون ذراعًا.

وعند مدينة فرعون موسى عليه السلام أهرام أخر أكبر وأعظم مما قبله، وآخرها هرم يعرف بهرم هيدوم كأنه جبل على هذه الصورة، خمس طبقات الطبقة الفوقانية كأنها قلعة على جبل.

(١) انظر شكل رقم (٣).
(٢) آثار البلاد ص ٢٢٥.
(٣) انظر شكل رقم (٤).

والهرم الذى فتحه المأمون[1] غلظ حائط الهرم الذى فتح فيه الباب أحد عشر حجراً، كل حجر عرضه عشرون ذراعًا.
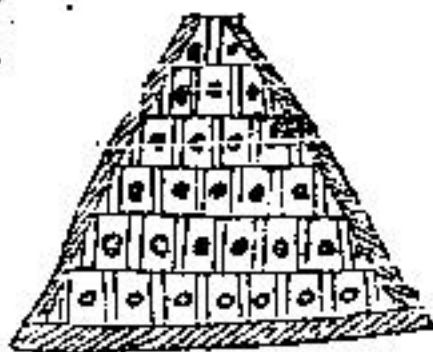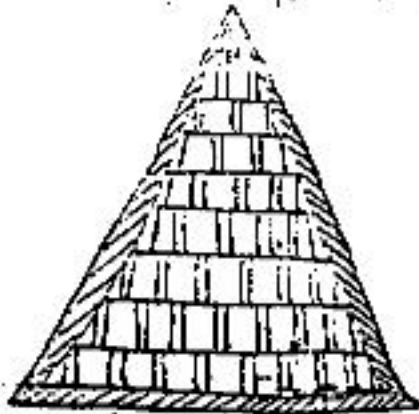
ولقد دخلت فى ذلك الهرم وفى داخله قبة مربعة الأسفل مدورة الأعلى كبيرة فى وسطها بئر عمقها مقدار عشرة أذرع، وهى مربعة ينزل الإنسان فى تلك البئر فيجد فى كل وجه من تربيع البئر باباً يفضى إلى دار كبيرة، فيها موتى من بنى آدم عليهم أكفان كثيرة أكثر من مائة ثوب، على كل واحد منهم، قد اخترقت من طول الزمان واسودّت، وأولئك الموتى أجسادهم مثلنا ليسوا طوالاً، يقال إنهم وضعوا هناك فى زمان إدريس عليه السلام صيانة لأجسادهم عن الطوفان الذى كان بعدهم فى زمان نوح عليه السلام، ولم يسقط من أجسادهم ولا من شعورهم شىء، وليس فيهم شيخ ولا من شعره أبيض أو فى شعره شيب البتة، وهم أجساد كثيرة جداً وأجسادهم قوية لا يقدر الإنسان أن يزيل منهم عضوا من أعضائهم، ولكنهم قد خفوا حتى صاروا كالغثاء خفة لطول الزمان.

وخاصية أرض مصر أن الموتى لا يبلون تحت الأرض من أى حيوان كان، وفى تلك البئر أربعة من الدور مملوءة بأجساد الموتى، وفى تلك البئر فى كل وجه من تربيعة البئر يدخل إلى دار من تلك الدور وفيها من الخفاش ما لا عدد له، وإنما يدخل الإنسان إلى تلك الدار بالمشاعل والنفط والحشيش اليابس، يشدونه حزمًا كالشمع ويشعلون فيه النار لأجل الخفاش، لأنهم إذا دخلوا بالشمع والسرج أطفأتها الخفافيش بأجنحتها لكثرتها، يلقون أنفسهم على النار يطفونها وكانوا يدفنون أيضًا جميع الحيوان فى الرمال.

ولقد وجدت يومًا ثيابًا كثيرة ملفوفة حزمة مقدار أكثر من مائة ذراع، وقد اخترقت تلك الثياب من كثرة ما لها من السنين فأزلت تلك الثياب المخترقة إلى أن ظهر تحتها خرق صحاح قوية بيض من كتان أمثال العصائب، فيها أعلام من الحرير الأحمر، وفى داخلها هدهد ميت لم يتناثر من ريشه ولا جسده شىء، كأنه قد مات الآن.

وفى القبة التى فى الهرم باب يفضى إلى علو كأنه سيب الرحى الذى ينصب فيه الماء على الرّحى عال لا يرى أعلاه، وليس فيه درج، وعرضه خمسة أشبار أو نحوها، يقال إنه صعد فيه فى زمان المأمون فأفضوا إلى قبة صغيرة، ووجدوا فيها صورة آدمى من حجر

(1) انظر شكل رقم (٥).

أخضر كالدهنج، فأخرجوا تلك الصورة إلى المأمون فوجدوها مطبقة كالدواة ففتحوها فوجدوا في ذلك جسد آدمي عليه درع من ذهب مزين بأنواع الجوهر وعلى صدره نصل سيف لا قائم له عند رأسه حجر ياقوت أحمر كبيضة الدجاجة، يضيء كالمصباح أو لهب نار، فأخذه المأمون وقال هذا: خير من خراج الدنيا ألف سنة.

وقد رأيت ذلك الصنم الذي أخرج منه ذلك الميت ملقى عند باب دار الملك بمصر، وهو دار السلطان الذي كان بها في زمانه في سنة إحدى عشرة وخمسمائة.

وفي أعلى مصر مدينة يقال لها إخميم[١]، وإخميم أخو الملك مصر بن القبط بن حام، بنى مدينة تعرف به وتسمى باسم الملك إخميم، وهي من عجائب الدنيا، مبنية بالصخر المنحوت، لها أربعة أبواب، يدخل الإنسان من بابها فيجد بيتًا كبيرًا مبنيًا مربعًا من الصخر المنحوت، وله أربعة أبواب من أي باب خرج وجد بيتًا مثله له أربعة أبواب، يخرج من بيت إلى بيت، آلاف من البيوت مظلمة لا يدخلها شمس ولا قمر ولا يرى فيها موضع يدخل منه ضوء إلا من الباب الذي دخل منه حتى يخرج إلى المدينة، وإنما يدخلها الناس مع أقوام من أهل تلك الناحية الذين يعرفون كيف يخرجون منها لكثرة ما دخلوا فيها، ويدخلون ومعهم المشاعل والسرج والنار ويصعدون في مواضع في حيطانها درجات فيصلون إلى بيوت أخر كالغرف فوق هذه البيوت على صورها وقدها وعرضها وطولها، لا يسكنها أحد ولا يدرى لأي شيء بنيت والله أعلم. وهي من عجائب الدنيا.

ورأيت في قصر فرعون موسى بيتًا كبيرًا من صخرة واحدة خضراء كالآس، فيه صُوَرُ الأفلاك والنجوم ما لم يشاهد عجبًا أحسن منه.

وفي مصر وغيرها من أنواع البنيان وعجائب الآثار ما لا يمكن إحصاؤه، وإنما أذكر يسيرًا من كثير.

وفي الشام حصن بعلبك، على أعمدة من الصخر كل عمود كقطعة جبل وعليها قلعة مبنية بحجارة مربعة، الحجر مائة ذراع وأكثر وأقل، قد رفعت في الهواء مما صنعته الجن لسليمان عليه السلام.

(١) انظر في مدينة إخميم: نهاية الأرب ج ١ ص ٣٩٤، المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٣٩.

وفي مدينة تَدْمُر من عجائب البنيان أمر عجب كثير.

وفي مدينة حِمْص مدينة أخرى تحت المدينة المسكونة العليا، فيها من عجائب البنيان والبيوت والغرف والمخازن والماء الجاري في كل طريق من طرقها[1]. حدثني بذلك جماعة من أهلها ممن دخلوها وشاهدوها.

وعند حوران مدينة عظيمة يقال لها اللجاة، فيها من البنيان ما يعجز عن صفته ألسن العقلاء، كل دار مبنية من حجارة الصخر المنحوت ليس في الدار خشبة واحدة، أبوابها وسقوفها وغرفها وبيوتها من الصخر المنحوت الذي لا يستطاع أن يعمل من الخشب على إحكامها، في كل دار بئر ورحى، وكل دار منفردة لا يلاصقها دار أخرى، كل دار كالقلعة الحصينة إذا خاف أهل تلك الرساتيق من الإفرنج دخلوا فيها، كل إنسان في دار بجميع عياله وخيله وغنمه وبقره ويغلق بابه ويجعل خلف باب الدار حجارة لا يقدر أن يفتح ذلك الباب لإحكامه، وهو من الصخر أقوى من الرخام فيها أكثر من مائتي ألف دار فيما يقال.

وقد سمعت ذلك من جماعة من أهل حوران، لا يدري من بناها، وتسميها العرب اللجاة، لأنهم يلتجئون إليها عند الخوف[2].

وفي أرض بغداد تل مبني باللبن والقصب يعرف بتَل عَقَرْقُوف وعقرقوف ملك كبير من ولد سام بن نوح عليه السلام من أولاد أولاده، وقد أودع في ذلك التل من أنواع العجائب والكنوز ما لا يحصى، وقد صح ذلك بطريق النقل المستفيض، وقد قصده عدة ملوك فارس ولم يتعرضوا إليه بهدم ولا يقدرون على هدمه، وكل من قصده ليهدمه يصرف الله تعالى عزيمته عن هدمه ويهوّله عليه بحيث لا يلتفت إليه، وهذا لا ينبغي أن ينكر فلكل مال صاحب لا يأخذه غيره.

وقد أصابني مثل هذا، كان لنا في المغرب قرية فيها دور وبساتين، وكان فيها قراح على قارعة الطريق بقرب الدار التي كنا نسكنها زمان الربيع والصيف والخريف، وكان في القراح قطعة بيضاء بقدر خمسة أذرع في ذراعين كأنها جص كنا نسميها الكنز، وذلك اسم شائع لذلك القراح منذ ملكه المسلمون، كنا نقول: هذا قراح الكنز، فلما كان قبل الخمسمائة عام جاءت الثلوج في تلك الشتوية كثيرة جداً فقالوا: إنه نزلت هناك قافلة بالليل

(١) المستطرف ص ٥٤٦.

(٢) المستطرف ص ٥٤٦.

واحتفروا ذلك الموضع فوجدوا صندوقًا من رخام طول خمسة أذرع فى عرض ذراعين عليه لوح رخام، ففتحوه وأخذوا ما كان فيه، ولما كان زمان الربيع ظهرت تلك الحفيرة لما ذابت الثلوج فبقينا فى حسرة، ولا شك أنه كان فيه مال والله أعلم، ولكن لكل دفين صاحب لا يأخذه غيره.

ومن عجائب البنيان إيوان كسرى، مبنى من الآجر والجص عرضه ست وثلاثون خطوة وطوله أربع وستون خطوة، وعلو أزجه سبعون ذراعًا، وإلى أعلى الشرفات مائة وخمسون ذراعًا، وقد انشق أعلاه عرضًا وسقطت منه أربع عشرة شرافة، ليلة ولد النبى ﷺ.

ودخلت إلى مدينة أبهر سنة أربع وعشرين وخمسمائة، ونزلت عند القاضى الإمام أبى اليسر عطاء بن نبهان، وكان من أصحاب الشيخ الإمام أبى إسحاق الشيرازى، وكان رحمه الله عالمًا فاضلا صالحا كريما، فتذاكرنا يومًا عجائب الدنيا فقال: إن فى أرضنا عجبًا لم يشاهد مثله، عندنا قلعة تسمى أروشان، فيها جبل يقال له كوه رستم، فيه غار يسمى غار رستم، فى أعلى الغار ثقب كفم كوز إذا دخل الإنسان إلى الغار يجد فى ذلك الثقب حزمة من قضبان عددها خمسة عشر قضيبًا، لا يدرى من أى خشب هى، مشدودة بخيط لا يدرى من أى شىء هو، وإذا حللت تلك العقدة لا يقدر أحد يعقد مثلها، وإذا أخذ الإنسان تلك الحزمة وخرج بها من الغار سقطت حزمة أخرى، وإن أخذها ألف مرة وأخرجها من الغار سقطت غيرها، فقلت: ليس الخبر كالمعاينة، فلما رأيت ذلك العجب قلت: ناولنى أنت هذه الحزمة واكتب لى بخطك هذه الحكاية والمناولة ففعل رحمة الله عليه وعندى خطه، وما زال كل من سمع ورأى القضبان من كبار الأئمة يأخذ منها قضيبًا حتى بقى عندى واحد، فقسمته بينى وبين من كنت أحتشمه وأخذ الخيط أيضًا.

وكان القاضى أبو اليسر يقول: هذه من كرامات الصوفية، لأن هذه القضبان لا تصلح إلا للقوّالين فى السماع وفى كل خانقة من أبهر ونواحيها من تلك القضبان كثير، وهى من عجائب الدنيا، وذلك الغار فى جبل عال كله صخرة واحدة لا يجد الإنسان سبيلاً أن يصل إلى أعلى ذلك الغار، ولا يدرى من أين حفر ولا كيف حفر، وظنى أنه من عمل الجن بأمر سليمان عليه السلام.

ورأيت في أردبيل حجراً في الميدان أسود له طنين كالفولاذ له محك كمحك القلعي الرصاص، وهو على صورة كلية البقرة[1]، فيه أكثر من مائتي منّ، وخاصيته إذا عدم المطر جعلوه على عجلة وأدخلوه مدينة أردبيل فينزل المطر ويدوم حتى يخرج ذلك الحجر إلى الميدان، فإذا خرج سكن المطر وهو من عجائب الدنيا[2]، والله أعلم.

وفي بلاد دَرْبَند باب الأبواب أمة يقال لهم الطبرسلان[3]، فيهم أربعة وعشرون ألف رستاق، في كل رستاق سرهنك كبير كالأمير، وهم مسلمون أسلموا في زمان مسلمة بن عبد الملك لمّا بعثه هشام بن عبد الملك حين ولي الخلافة، ففتح باب الأبواب فأسلمت على يده أمم كثيرة منهم أيضاً اللكز والفيلان والخيذاق والزقلان والغميق والدرهاة.

وفيهم في تلك الجبال سبعون أمة لكل أمة لسان، فلما أراد مسلمة الرجوع بعدما أسكن في دَرْبَند أربعة وعشرين ألف بيت من العرب من الموصل ودمشق وحمص وتَدْمُر وحلب وسائر بلاد الشام والجزيرة، قال له الطبرسلان: أيها الأمير، إنا نخاف إذا انصرفت عنا أن ترتد هذه الأمم وتشقى في مجاورتها، فأخرج مسلمة سيف نفسه وقال: سيفي بينكم اتركوه هاهنا، فما دام بينكم لا يرتد من هذه الأمم أحد، فعملوا لسيفه كالمحراب من الصخر وأقاموه في داخله على تل حيث كان نازلاً، وهو الآن باق في تلك الأرض يزوره الناس ومن قصد إليه إن كان في الشتاء لم يمنع من لبس الثياب الزرق وغيرها، وإن كان في وقت الحصاد يمنع أن يزوره أحد إلا بثوب أبيض، فإن زاره بغير ثوب أبيض جاء المطر الكثير فيهلك الزرع وتفسد الفواكه، وهذا الأمر مستفيض عندهم.

وبالقرب من دَرْبَند جبل عظيم في أسفله قريتان فيهما أمة يقال لها زردية[4] كاران، يعني صناع الدروع، يتخذون الآلات جميعها للحروب من الدروع والجواشن والخوذ والسيوف والرماح والقسي والنشاب والخناجر وجميع أنواع آلات النحاس[5].

---

(١) انظر شكل رقم (٦).

(٢) آثار البلاد ص ٢٩١ نقلا من المؤلف.

(٣) لدى ياقوت ج ١ ص ٣٠٣: «طَبَرسَران».

(٤) في آثار البلاد ص ٥٩٥: «زره كران».

(٥) آثار البلاد ص ٥٩٥.

جميع نسائهم وأولادهم وبناتهم وعبيدهم وإمائهم يتخذون هذه الصنائع كلها، وليس لهم حرث ولا بساتين، وهم أكثر الناس خيراً ومالا يقصدهم الناس بجميع النعم من جميع الآفاق، وليس لهم دين ولا يعطون جزية، وإذا مات لهم ميت إن كان رجلاً سلموه لرجال في بيوت تحت الأرض يقطعون أعضاء الميت وينقون عظامه من اللحم والمخ ويجمعون لحمه فيطعمونه للغربان السود، ويقفون بالقسي يمنعون غيرهم من الطير أن يأكل من لحمه شيئاً.

وإن كانت امرأة سلموها إلى رجال تحت الأرض يخرجون عظامها ويطعمون لحمها للحدأة، ويقفون بالنشاب يمنعون غيرها أن تدنو من لحمها[1].

وقد قلت للأمير الأسفهسلار عبد الملك بن أبي بكر في دربند: كيف يتركون هذه الأمة لا يسلمون ولا يؤدون جزية ولا خراجا؟ فقال: لهم حسرة الملوك وقد أمرني الأمير سيف الدين محمد بن خليفة السُّلمي صاحب دربند رحمه الله، وكنت رأيته وأكرمني جازاه الله خيراً قال: فخرجت فجمعت أمما من الأتراك وغيرهم، وخرج الأمير في أهل دربند وجاءت الأمم من الجبال: اللكز والفيلان وغيرهم، فكنا في عسكر كالبحر وقصدنا تلك القريتين، وليس لهم حصن ولا قلعة، فأغلقوا أبوابهم.

فأنا أول من دخل القرية الواحدة، فخرج من تحت الأرض جماعة رجال ليس عليهم سلاح فوقفوا وأشاروا بأيديهم إلى الجبال وتكلموا بكلام لم أفهمه، ثم غابوا تحت الأرض فأصابنا من الريح الباردة والثلج العظيم بحيث ما نبصر شيئاً، وكأن السماء سقطت علينا ثلجًا وبردًا، فانصرفنا ولا ندري أين نذهب لا أنا ولا غيري، وقتل بعضنا بعضًا بصدم الفرس القوي للفرس الضعيف فيقع هو وراكبه فيمشي عليه الناس فيهلك هو وفرسه.

قال: وضربني من لا أعرف بنشابة في منكبي الأيسر فخرجت من تحت إبطي فكدت أن أهلك، وتماسكت حتى بعدنا عنهم فراسخ وانكشف عنا ذلك الثلج والريح والبرد، وفقدنا من العسكر خلقًا كثيراً، فأخرجت النشابة من منكبي وبقيت منها مريضاً أربعة أشهر.

ولم نقدر أن نأخذ منهم رغيفًا واحدًا ولا قاتلنا منهم أحدًا، وما ذاك إلا سحر من أولئك الرجال الذين يخرجون عظام الموتى ويجعلون عظامهم في أكياس الأغنياء

(١) آثار البلاد ص ٥٩٥.

والسانات. أكياسهم من الديباج المذهب أو الرومي والعبيد والإماء في الخام[١] وشبهها من الثياب ويعلقونها في البيت ويكتبون على كل كيس اسم صاحبه، وهذا عجب عظيم.

وفي قرب خوارزم جبل عليه قلاع كثيرة[٢] وله رساتيق، وهو جبل عظيم طويل يمتد في بلاد الكفار إلى ان يصل إلى بلخشان، وبالقرب من خوارزم في ذلك الجبل شعب فيه تل على ذلك التل قبة كبيرة لها اربعة أبواب آزاج كبار فيها من لبنات الذهب الأحمر منضدة بعضها على بعض ما لا يعد ولا يحصى ملء ارض ذلك الموضع ذهبًا هو كالقبة التي على ذلك التل يكون علوّ الذهب في رؤية العين أكثر من خمسة أذرع، وحول ذلك التل الذي عليه الذهب ماء راكد كدر لا مادة له إلا من المطر والثلج يظهر أرضه عليه غشاء لا يقدر أحد أن يصبره، إن دخله أحد اختلط وغاص ولم يقدر أن يخرج منه أبدا. وإن ألقي فيه زورق غاص في ذلك الماء، وأي شيء ألقي في ذلك الماء ذهب ولا يقدر أحد على إخراجه.

وقد جاء إليه محمود[٣] صاحب غزنة واقام عليه ثلاث سنين لم يترك أحدًا من أهل الرساتيق واهل خوارزم وجميع عسكره إلا حملوا إليه التراب والخشب والقصب والحجارة والزواريق، فغاص الجميع في ذلك الماء ولم يؤثر، فانصرف عنه آيسا، وهذا من عجائب الدنيا.

وقد عبرت من بلد سخسين بأرض الخزر والترك إلى خوارزمشاه ثلاث مرات، ورأيت ذلك الموضع وهو من عجائب الدنيا، وقد أقام علاء الدولة خوارزمشاه أربعين سنة يحتال في أمره بكل حيلة فلم يستطع له حيلة.

وقد حدثني بعض علماء خوارزم بها، قال: جاء رجل من رساق خوارزم فدخل بسوق الجوهر وأخرج قطعة زمرد فائق ما رأى أحد مثلها، فأخذه الجوهريون وحملوه إلى خوارزمشاه، وقالوا: يا مولانا هذا الرستاقي جاءنا بهذه القطعة التي ما حسبنا ان في الدنيا مثلها، فسأله خوارزمشاه بعد ما آنسه وامنه واحسن إليه وخلع عليه وطيّب قلبه، وقال له:

(١) الخام من الثياب: الذي لم يُقصر، ويوصف به، فيقال: ثوب خام.

(٢) انظر في هذا الخبر: آثار البلاد ص ٥٢٦.

(٣) انظر في هذا الخبر: آثار البلاد ص ٥٢٦.

أين وجدت هذه القطعة؟ فقال: ذهبت لأنظر موضع ذلك الذهب فرأيت بالقرب منه قبة خضراء مبنية بحجارة مثل هذه الحجارة عالية كبيرة، فدخلت فيها فرأيت بها قبرًا عظيمًا عليه ضريح مبني بحجارة وألواح مثل هذه القطعة، وعلى الضريح قصاع كبار وأواني عظام من جنس هذه القطعة لم أقدر أن أحمل منها واحدة لثقلها، ولم أجد فيها أخف من هذه فأخذتها وجئت بها، ولا أدري ما هي، وقد علّمت على باب القبة علامات، وجمعت عند كل باب تلا من الحجارة.

فقام خوارزمشاه وركب في خواصه وأصحابه وحملوا الرستاقي معهم فوصلوا إلى الموضع فرأوا الموضع والعلامات كما قال ولم يروا القبة، فقال خوارزمشاه: هذه من أعمال الجن يحفظ الله بهم هذه الأموال حتى يأتي من قدّرها الله عز وجل له، وهذه أيضًا من عجائب الدنيا، وكم في الدنيا من عجيب أعجب، وأعظم مما ذكرناه ولم نصل إليه ولم نسمع به، وفيما ذكرنا كفاية لذوي الألباب، والحمد لله على نعمه وإحسانه وفضله وامتنانه.

الباب الثالث

في صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار وما في جزائرها من أنواع النفط والنار

اعلم أن البحر المحيط الذي أحاط بالدنيا والأرض في وسط البحر كالكرة في غدير ماء، وهو البحر الأسود الذي يعرف ببحر الظلمات لا تدخله السفن، وبحر الهند خليج منه، وبحر الصين خليج منه، وبحر القلزم خليج منه، وبحر الروم خليج منه، وبحر اللاذقية خليج منه، وبحر فارس خليج منه يمتد بعضه إلى البصرة إلى عبّادان وسيراف وكرمان والبحرين وجزيرة قيس والدَّيْبُل إلى بلاد الحبشة إلى الزنج وإلى سرنديب والصوليان.

وكل هذه البحار التي ذكرتها وما لم أذكرها، إنما أصلها من البحر الأسود الذي يقال له البحر المحيط.

وأما بحر الخزر وبحر خوارزم وبحر أخلاط وبحر أرمية والبحر الذي عنده مدينة النحاس وغير ذلك من البحار الصغار فهي منقطعة عن البحر الأسود، ولذلك ليس فيها جزر ولا مد، وإنما هي ماء له مادة من الأنهار الكبار وأكبرها بحر الخزر فأما البحر الأسود الذي يخرج منه بحر الروم وبينهما مجمع البحرين الذي عرضه ثلاث فراسخ وطوله عشرون فرسخًا والله أعلم.

وفيه الجزر والمد من طلوع الشمس يعلو البحر الأسود، وينصبُّ في بحر الروم من مجمع البحرين، حتى يفيض في بحر الروم، ويخرج على جوانب البحر حتى يصل المد إلى خلف قسطنطينية، مسيرة شهور في ساعة واحدة، حتى إلى وقت الظهر، فإذا استوت الشمس في كبد السماء غاص البحر الأسود فعاد ينصبُّ الماء من البحر الاخضر الذي هو بحر الروم في البحر الأسود إلى وقت مغيب الشمس فيستوي البحران، ثم يعلو البحر

الأسود فيعود الماء يجرى من مجمع البحرين إلى بحر الروم إلى نصف الليل، ثم ينصب أيضًا فى البحر الأسود إلى الصباح، يمد ويجزر كل يوم مرتين، وكل ليلة مرتين، ذلك تقدير العزيز العليم.

وقد سئل عليه السلام عن الجزر والمد فقال: ملك على قاموس البحر إذا وضع رجله فيه فاض وإذا رفعها غاض[١].

ويخرج من البحر الأسود، وإنما يعرف بالأسود لأن ماءه فى رؤية العين كالحبر الأسود، فإذا أخذ منه الإنسان فى يده فهو أبيض صاف، إلا أنه أمرُّ من الصبر مالح شديد الملوحة، فإذا صار ذلك الماء فى بحر الروم تراه أخضر كالزنجار والله أعلم لأى شىء ذلك.

وكذلك أيضًا فى بحر الهند خليج أحمر كالدم، وبحر أصفر كالذهب، وخليج أبيض كاللبن، وخليج أزرق كالنيل والله أعلم من أى شىء تتغير هذه الألوان فى هذه المواضع، والماء فى نفسه أبيض صاف كسائر المياه.

ويخرج من البحر الأسود أنواع السمك الكبار يبعث الله عز وجل سباعًا من سباع البحر فيخرجونها وآلافًا لا عدد لها يخرجونها فى مجمع البحرين فيصطادها الناس.

وهى أنواع كثيرة السمكة الواحدة مائة منّ ومائتا منّ أو أكثر أو أقل، ولولا أن الله عز وجل يسلط عليها سباع البحر لما خرجت فيخرجها رزقًا لعباده.

ويخرج الله تعالى من البحر الأسود سمكًا كبارًا كالجبال يتبعها سمك أكبر منها ليأكلها فتفر من بين يديه فتعبر فى مجمع البحرين وتأتى السمكة الكبرى لتعبر فى طلبها فيضيق عنها مجمع البحرين لكبرها وعظم جسدها فترجع إلى البحر الأسود وعرض مجمع البحرين ثلاث فراسخ.

ولقد كنت فى مجمع البحرين فى سفينة فخرجت سمكة من البحر مثل الجبل العظيم فصاحت صيحة لم أسمع قط أوحش منها ولا أهول ولا أقوى منها فكاد أن ينخلع قلبى وسقطت على وجهى أنا وغيرى، وألقت نفسها فى البحر واضطرب البحر علينا وعظمت

(١) هذا من الإسرائيليات الدخيلة على الفكر الإسلامى، وهو مخالف للحقائق العلمية.

أمواجه وخفنا الغرق حتى نجانا الله عز وجل، وسمعت الملاحين يقولون: هذه السمكة تعرف بالبغل[١].

ورأيت في البحر أيضًا سمكة كالجبل يبدو رأسها وظهرها وذنبها. ومن رأسها إلى ذنبها عظام سود كأسنان المنشار، كل عظم في رؤية العين أكثر من ذراعين، وكان بيننا وبينها في البحر أكثر من فرسخ، فسمعت الملاحين يقولون: هذه السمكة تعرف بالمنشار إذا صادفت أسفل السفينة قسمتها نصفين[٢].

ويخرج في ذلك البحر سمكة عظيمة يقال لها سمكة العنبر لأنها تأكل العنبر، وذلك أن العنبر يخرج من بحر الظلمات من عيون في جبال البحر كما يخرج القير، فتأكله تلك السمكة وما كان مثلها من السمك، فإذا أراد الله تعالى أن يخرج ذلك العنبر من جوفها رزقًا لمن شاء من عباده، سلط الله عليها سمكة من سمك البحر أكبر منها تطردها من البحر الأسود حتى تخرجها إلى بحر الروم إلى جانب من جوانب خليج من خلج البحر، فتلقي نفسها في موضع قليل الماء فلا يمكنها الحركة فيدخل الناس إليها بالسفن فيشقُّون جوفها ويأخذون ذلك العنبر منه، وربما خرجت قطعة من العنبر الذي لم تأكله دواب البحر وقد اجتمع في بعض جبال البحر ثم ضربته الأمواج فيخرج إلى البر قطع كبار يكون وزن الواحدة قنطار وأكثر وأقل فيأخذها من قدرت له، وهو أطيب رائحة من العنبر الذي وجد في بطن السمك فيما يقال، والله أعلم.

وقد يخرج الله عز وجل من البحر الأسود سمكًا طوالاً عظامًا تعرف بالمنارة لطولها، يقال: إنها تخرج في البحر إلى جانب السفينة الكبيرة فتلقي نفسها على السفينة فتحطم السفينة وتهلك كل من فيها، فإذا أحسوا بها أهل السفينة قبل أن تلقي نفسها صاحوا وكبروا وضجوا وضربوا بالدبادب والطبول والصنوج ونفخوا الصور والبوقات ونقروا الطسوت والأسطال والأخشاب، فربما إذا سمعت تلك الأصوات نفرت وصرفها الله عز وجل عنهم بفضله ورحمته[٣]. وفي البحر من عجائب المخلوقات ما ليس له شبيه.

ولقد رأيت يومًا في البحر وأنا على صخرة والماء تحت رجلي قد خرج ذنب حية

---

(١) عجائب المخلوقات للقزويني ج ١ ص ٢٠٢، المستطرف ص ٥٣٦ نقلا عن المؤلف.

(٢) المستطرف ص ٥٣٦ نقلا عن المؤلف. وقسمتها: شطرتها. (٣) المستطرف ص ٥٣٦.

صفراء منقّطة بسواد، طولها مقدار باع تطلب أن تقبض على رجلى فبعدت منها وأخرجت الحية رأسها كأنه رأس أرنب من تحت ذلك الحجر، فسللت خنجرًا كبيرًا كان معى فطعنت به رأسها فأدخلت رأسها تحت الحجر. ثم قبضت على الخنجر فلم أقدر أن أخلّصه منها، وكلما جررته وجذبته لم أقدر على تخليصه منها، فأمسكت مقبض الخنجر بيديَّ جميعه وجعلت أجره وألصقه بالحجر كأنى أقطع به شيئًا، فتركت الخنجر وخرجت من تحت الحجر، وإذا بها خمس حيات ورأس واحد فعجبت من ذلك[1].

فسألت من كان هنالك عن اسم هذه الحية فقالوا: هذه تعرف بأم الحيات، وذكروا أنها تقبض على الآدمى فى الماء فتمسكه حتى يموت وتأكله، وأنها تقبض على السمك فى البحر وتأكله، و [أنها] تعظم تكون كل حية أكثر من عشرين ذراعًا، وأنها تقلب الزوارق وتأكل كل من قدرت عليه من أصحابها، وأن الحديد لا يقطعها ولا يؤثر فيها[2].

ثم بعد ذلك وقعت واحدة من هذه الحيات فى صنارة غلام كان معى فأخرجها إلى البر فرأيت منظرًا عجيبًا، فمها تحت رأسها فى الموضع الذى يمكن أن يكون فيه الدبر، وحشاها فى دماغها، وأدخلوا سكينا فى فمها وأخرجوا حشوتها فماتت، فسلخوا جلدها فكان أرق من قشرة البصلة خفيفًا لينًا، فكنت أجعله على يدى وأجر عليه السكين الحاد المرهف الذى يحلق الشعر فلا يؤثر فيه ولا يعلق منه بشىء، وكان لحمها كإلْيَة الغنم المطبوخة ليس فيه عظم ولا يصلح للأكل، إلا أنهم يصطادون به السمك فى الصنارة، فالسمك يحبه ويصطاد السمك به.

ولقد رأيت يومًا وأنا على جانب البحر وقد جزر الماء بعد الظهر وانكشف جبل فى البحر قريب من الساحل، فرأيت على صخرة من ذلك الجبل عددًا من النارنج الطرى الأحمر الذى كأنه قد قطع الآن من شجرة، فقلت فى نفسى هذا قد وقع من بعض السفن، فنمت إليه فقبضت منها واحدة فإذا هى متصلة بالبحر وإذا بها حيوان يضطرب فى يدى ويتحرك، فتركته ونظرت إليه فإذا فمه فى موضع المرجون الذى يتعلق منه النارنج، وهو ثقب فيه خضرة كما يكون النارنج وهو يتحرك ويفتح فمه وكأنه يأكل شيئًا، وهو لين

(١) المستطرف ص ٥٣٦.

(٢) المستطرف ص ٥٣٦ نقلا عن المؤلف وما بين حاصرتين منه.

فلففت كم ثوبى على يدى وقبضت عليه مرة أخرى وعصرته وجررته فخرج من فمه مائية كثيرة وضم ولم اقدر أن أقلعه من مكانه، فأخرجت سكينًا كان معى ورمت قلعه عن الحجر أو قطعه، فلم يؤثر السكين فيه شيئًا، وعالجت كل واحدة منها فلم أستطع لها على شيء فتركتها عجزًا منها، وهى من عجائب خلق الله تعالى ورأيت جميعها أحياء يتحرك وليس لها عين ولا جارحة من الجوارح إلا الفم، والله أعلم لأى شيء تصلح(١).

ولقد كنت مرة في زورق انظر إلى ماء البحر إذ مرت بى قطعة شبكة مقدار ذراع فى مثله، مفتولة الخيوط مربعة العيون ظاهرة العقد كأنها قطعة من شبكة صياد، فأخذتها من البحر فاضطربت فى يدى، فألقيتها فى البحر فسبحت وذهبت وغاصت فى البحر وهى من حيوانات البحر فتعجبت من ذلك.

ولقد وجدت يومًا عنقود عنب أسود على جانب البحر كثير الحب أخضر العرجون كأنه قطف من كرمة الآن، فأخذته وذلك فى زمان الشتاء وليس فى تلك الأرض التى كنت فيها عنب، لأننى كنت فى بعض بلاد البربر فى بلدة يقال لها تِمْسَامَان كانت لبعض قرابتى، وكنت نازلاً عنده وهى على جانب البحر، فأخذت ذلك العنقود وقد فَرِحْتُ به فرمت أن آكل منه فقبضت على حبة منه وجذبتها وهى لينة ولكن لم أقدر أن أقلعها من العنقود كأنها من الحديد قوة، فتعجبت منه وجذبت الحبة كثيرًا بقوة فانسلخت قشرة الحبة وهى كقشر لبة العنب سوادًا، وداخلها على هيئة حبة العنب إذا قشرت قبل أن تنضج بيضاء يبين فى داخلها عجمها، وتبين العروق فى لحم تلك الحبة لا يغادر من العنب شيئًا، فقيل لى هذا من عنب البحر ورائحته كرائحة السمك، ويخرج من البحر إذا كان وقت الخريف وهاجت الرياح واضطربت الأمواج فيه، فيظهر الله تعالى على جانب البحر أحمالاً من حيوان يشبه جامات الزجاج التى تكون فى الحمامات شديدة البياض مدورة ينفذ فيها البصر ثخانا لينة، فتحرك ثم تموت بسرعة، فتكون على شاطئ البحر أحمالاً يترامى بها الصبيان فتنقطع ولا تصلح لشيء، والله أعلم أى منفعة فيها.

ويكون أيضًا فى البحر نوع من حيوان يشبه رأسه رأس العجل، وله أنياب كأنياب

(١) المعطارف ص ٥٣٦ نقلا عن المصنف.

السباع، وجلده له شعر كشعر جلد العجل، وله عنق وصدر وبطن وله رجلان كرجلى الضفدع يثب عليهما كما يثب الضفدع، وليس له يدان يعرف بالسمك اليهودى، وذلك أنه إذا غابت الشمس ليلة السبت خرج من البحر وألقى نفسه فى البر ولا يتحرك ولا يأكل ولو قتل لم يدخل البحر، حتى تغيب الشمس ليلة الأحد فحينئذ يدخل البحر ولا تلحقه السفن لخفته وقوته، وجلده يتخذ منه نعل لصاحب النقرس فيبرأ، ولا يجد للنقرس ألما ما دام ذلك النعل فى رجله(١). وهو من عجائب الدنيا.

وفى البحر أنواع من الحيوانات تطير لها أجنحة عجيبة تطير بها، ولقد رأيت سمكة بطول الذراع سوداء الظهر بيضاء البطن، خرجت من البحر وطارت فى الهواء ما شاء الله تعالى، ثم ألقت نفسها إلى البحر فسألت عنها فقالوا: اسمها الخطّاف.

ويكون فى بحر الروم سمك طويل يكون طول السمكة أكثر من مائة ذراع له أنياب كأنياب الفيل الصغير، تؤخذ أنيابه وتباع فى بلاد الروم وتحمل إلى سائر الدنيا، وهو أحسن وأقوى من ناب الفيل، ويظهر فى بعضه إذا شق نقوش عجيبة يسمونها الجوهر، ويتخذون من تلك الأنياب نصلاً للسكاكين يسمونها العجم دندان ماهى(٢)، ينقشون فيه سائر النقوش، وهو مع قوته وحسن لونه وجوهريته ثقيل الوزن كأنه الرصاص(٣). ويدبغ الروم جلده فيكون أبيض كالثلج لينًا قويًا ويقدونه فى عرض الإصبع كقد العنان، يكون طول الشراك الواحد عشرين باعًا وأكثر وأقل، يبيعونه فى بلاد بلغار وبلاد الصقالبة، وهو من أقوى الجلود كأنه الحديد فى القوة مع لينه ونعومته، ويأكلون لحم ذلك السمك ويزعمون أن لحمه من أطيب لحوم السمك.

وفى بحر الروم سمك يسمى الرعاد وتوجد هذه السمكة بنيل مصر على الصفة المذكورة، ومن خواصه أن يعمل من جلدة طاقيّة وتلبس للصداع فيسكن، وإذا كان فى شبكة فكل من يجر تلك السمكة أو يضع يده عليها أو على حبل من حبالها تأخذه الرعدة حتى لا يملك من نفسه شيئًا كما يرعد صاحب حمى الربع إذا كان مفلوجًا، فإذا أزال يده زالت الرعدة عنه، وإن أعاد يده إلى الحبل والشبكة أو شىء يتصل بتلك الشبكة عادت إليه الرعدة(٤). وهى أيضًا من عجائب الدنيا.

---

(١) المستطرف ص ٥٣٧.

(٢) دندان ماهى: أى أسنان السمك.

(٣) المستطرف ص ٥٣٧

(٤) المستطرف ص ٥٣٧

وفى بحر الروم سمك صغير يكون كالذراع يسمى بُلْبُ إذا اصطادوه ومسكوه ويبقى فى أيديهم ما شاء الله لا يموت ولا يزال يتحرك ويضطرب فيقطعونه قطعًا ما بين صغار وكبار، وهو يثب ويضطرب، وإن جعلت منه قطعة على النار وثب إلى خارج النار وربما أصابت وجه الإنسان وإن جعلت فى القدر فى ماء حار كالنار وهى مقطعة، وربما قلبت القدر، ويحتاجون إذا طبخوه أن يثقلوا القدر بحديد ثقيل أو صخرة ثقيلة حتى ينضج، ومهما لم ينضج لا يموت ولو قطع ألف قطعة[1]. وهو من عجائب المخلوقات.

وفى بحر الروم أيضًا حيوان كأنه قلنسوة الأتراك البيض التى تتخذ بدريند، طوالاً محددة الرءوس من اللبد الأبيض تلبس لأجل المطر، كأن ذلك الحيوان قلنسوة وفى داخلها مثل المصارين كثيرة طوال متعلقة وليس لذلك الحيوان رأس ولا عينان ولا فم، وإذا وقع فى شبكة اضطرب فيخرج من مصارينه شيء أسود كالحبر يسود له الماء، ورائحة ذلك السواد كريهة، وإذا أصاب ذلك الماء الثوب صبغه ولم يخرج بغسل ولا غيره، ويؤخذ لحمه ويؤكل، وهو كغضروف الجمل السمين ولا تؤكل مصارينه[2]. وهو من العجائب.

وفى مجمع البحرين على جانبه الشرقى فى الصخرة التى وصل إليها موسى ويوشع ونسى عندها الحوت، وكان الحوت مشويًا، قد أكلا نصفه الأيمن طولاً مع نصف رأسه، وعينه الواحدة اليمنى، وأخبره الله تعالى أن موضع الخَضِر فى المكان الذى يصير الميت فيه حيًا، فلما وصل إلى الصخرة عاد نصف السمكة المشوية المأكول نصفها حيًا، واتصلّ ذلك على صورة نصف السمكة بعين واحدة الجانب الأيمن كأنه قد أكل، بقى حشوته عليها شوك أضلاعها، وجلد رقيق يحفظها، والنصف الأيسر صحيح وهو من أطيب السموك. والسمكة منه طولها أربعة أشبار فى عرض شبر، ويكون صغارًا وكبارًا، ونسلها من مجمع البحرين عند تلك الصخرة وقرب منها تحمله اليهود والنصارى مقلدًا إلى بلادهم، ويتبركون به وهو من أطيب السموك.

ويخرج من بحر الظلمات أنواع من سباع السمك لها عدوان كعدوان الذئاب والأسود الضارية وأشد وأدهى وأضر منها نوع يسمى الكوسج، يكون كالسمك طويل طوله عشرة

---

(١) عجائب المخلوقات ج ١ ص ٢٠٣.

(٢) عجائب المخلوقات ج ١ ص ٢٠٢.

أذرع وأقل فى فمه فى الحنك الأعلى سبع صفوف أسنان أحدُّ من المناشير الفولاذ وأقطع وأقوى، وفكه الأسفل أقصر من الفك الأعلى، وفيه صف واحد من الأسنان أحدُّ من السيف المرهف، يقطع الآدمى نصفين، وأى حيوان ظفر به قطعه أسرع من لمح البصر.

ويخرج أيضًا من الأنهار الكبار فيهلك من ظفر به من الناس، وأكثر ما يخرج إلى الأنهار فى شدة الحر فى حزيران وتمّوز، حتى أن فى نهر البصرة يقطع أرجل السقايين وأيديهم، إذا استقوا فى الماء.

وهناك أيضًا فى البحر سبع من السمك يعرف بالتنين، أسود طويل كالثعبان العظيم، أحمر العينين، له أنياب كأسنة الرماح أشر من الكوسج، وأشد وأقوى عدوانًا، يفر الكوسج منه فيما يقال، والله أعلم.

وهو يثب من البحر على مَنْ كان فى الشاطئ، فيفترسه، وهو آفة عظيمة، وإذا أخذ وهو صغير ووقع فى شبكة قتلوه، ويطعمون لحمه لمن به الفالج ولمن غلب عليه البرد والرطوبة فيستريح ويبرأ لحرارة لحمه.

وفى البحر أيضًا أنواع من السباع لا أعرف أسماءها، وفى ذلك البحر رأيت سمكة كأنها الترس العظيم مدوَّرة كبيرة بيضاء لا تشبه السمك، ولها رأس فى جسدها وفم وأنياب وذنب أيضًا قصير عريض، وجانبان عريضان رقيقان كأنهما أجنحة لها وبها تتحرك فى الماء، وهى مدورة كالترس، ولها بطن كبير، رأيتها وقد شقوا بطنها وأخرجوا حشوتها وفيه كبد كبيرة وقلب ورئة حمراء كحشوة الغنم الكبير السمين، ولها شحم كثير، ولحمها أبيض لا يشبه لحم السمك، فسألت عنها فقالوا هذه تسمى البقرة.

وفى بحر الروم من الجزائر كثير جدًا منها جزيرة تسمى بسردانية، وهى عظيمة جدًا فيها أمة من الكفار خلق كثير شجعان، والبحر الذى هم فيه يقال له بحر اللاذقية خلف قسطنطينية، متصل بالبحر الرومى الذى فى قِبلىّ بلد قسطنطينية.

وفى بحر الروم جزيرة يقال لها صقلية، فيها جبل قريب من البحر يخرج منه نار تضىء بالليل إلى عشرة فراسخ، وقد رأيت جزيرة صقلية لما ذهبت إلى الإسكندرية سنة إحدى عشرة وخمسمائة.

وأخبرني ببغداد الشيخ الإمام الزاهد العالم العلامة أبو القاسم بن الحكم الصقلي حين سألته عن تلك النار، قال: إن تلك النار تضيء على عشرة فراسخ، لا يحتاج أحد معه في تلك المواضع إلى ضوء ولا إلى سراج في طريق ولا في قرية لكثرة ذلك الضوء، ويخرج من تلك النار جمر كبار كأعدال القطن يتقطع فيقع بعضها في البر فيصير حجرًا أبيض خفيفًا يطفو على الماء لخفته، والذي يقع في البحر يصير حجرًا أسود مثقبًا يحك به الأرجل في الحمام، يطفو على الماء أيضًا.

وإن وقع جمر من تلك النار على حجر أو رمل احترق الحجر واشتعل كما يشتعل القطن حتى يقع ذلك الحجر ويصير غبارًا كالكحل، ولا يحرق الحشيش ولا الثياب إلا الحجارة والحيوان، فهذه النار تشبه نار جهنم التي قال الله عز وجل: ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (سورة التحريم: ٦) أعاذنا الله تعالى منها ومن عذابها، آمين، يا رب العالمين.

وفي ذلك البحر جزائر يسكنونها المسلمون وجزائر لا يسكنها أحد، وفيها جزيرة كبيرة يقال لها جالطة مملوءة بأغنام سمان ما لها صاحب تقصدها السفن يأخذون منها ما لا نهاية له ويذبحونها ويملأون بها السفن من لحومها ولا تفنى لكثرتها.

وأما في بحر الهند والصين، ففيهما آلاف من الجزائر الكبار، بعضها مسكونة وبعضها غير مسكونة، وفيها من أنواع النعم والنبات والحيوانات ما لا يعد ولا يحصى.

وكنت بمصر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة واجتمعت بها بالشيخ أبي العباس الحجازي، وكان ممن أقام بأرض الصين والهند أربعين سنة، وكان الناس يحدثون عنه بالعجائب، فقلت له: يا أبا العباس، إني سمعت عنك أشياء كثيرة من العجائب والآن أريد أن أسمع منك شيئًا عن عجائب خلق الله تعالى، وكان الشيخ الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الفهري حاضرًا، فقال أبو العباس: قد رأيت أشياء كثيرة ولا يمكن أن أحدث بها لأن أكثر الناس يحسبون أنها كذب، فقال الشيخ الإمام أبو بكر: يكون ذلك من العوام الجهال، وأما العقلاء وأهل العلم فإنهم يعرفون الجائز والمستحيل، وذكر عجائب خلق الله تعالى يستحب التحدث بها إظهارًا لقدرة الله تعالى في عجائب مخلوقاته، فقال له أبو العباس: دخلت جزيرة سرنديب وهي جزيرة عظيمة في وسطها جبل الراهون الذي نزل عليه آدم عليه السلام وحول ذلك الجبل أشجار كثيرة كبار وغياض كثيرة، في كل موضع من تلك الغياض

بين تلك الأشجار حيات كبار كجذوع النخل، الحية تبلع الآدمي والبقر والأغنام، وتلتف حول شجرة من تلك الشجر العظام فتكسِّر في جوفها عظام ذلك الحيوان الذي ابتلعته حتى تهضمه، فلا يمكن أحد من الناس أن يصل إلى ذلك الجبل، وكنت سمعت أن عند تلك الجزيرة دهنًا إذا دهن به الإنسان لا يعمل الحديد فيه شيئًا، فأهديت إلى أخت الملك هدية وتوسلت بها إلى الملك فأعطاني حجرين، كل واحد كالبيضة الصغيرة الواحد أبيض منقط بحمرة والآخر أصفر منقّط بسواد، وقال: يؤخذ الشيرج فيغلى حتى يذهب نصفه ويجعل هذان الحجران في الدهن، ومن ادهن بذلك الدهن لم يؤثر الحديد فيه شيئًا حتى يغسل جسده، ومن شرب من ذلك الدهن عشرة دراهم ولا يأكل لبنًا ولا ما يتخذ من اللبن لم يضره الحديد البتة.

وقال: كان غلام قد شرب من هذا الدهن فكان أصحابي هؤلاء يجرون السكين على ذراعيه وحلقه فلا يؤثر الحديد فيه شيئًا.

وأعطاني ملك آخر من ملوك الصين دهنًا آخر مثل الدبس، إذا دهن به جرح زال ألمه والتحم في وقته قبل أن يخاط فتق مثله، فقلت: يا أبا العباس، فلِمَ لَمْ تأت منه بشيء فإنه كان أنفع لك من كثير من المال؟ فقال: جئت منه بكثير ولكنه ذهب في جملة من أموالي ذهبت لي في بحر الصين والهند إلى أن وصلت إلى بحر القلزم عشر سفن، وإنما بقي معي سفينة صغيرة كانت برسم المطبخ، وكان فيها جماعة من خدمي فسلَّمَنا الله عز وجل فيها بعدما ذهبت ذخائري وأموالي.

وكنت سمعت أنه أهدى لصاحب مصر الأفضل ابن أمير الجيوش من أنواع ذخائر الصين ما لا يعرف له قيمة، فقال له صاحب مصر: أريد منك أن تجمِّل بلدي.

وسمعت أنه كان في جملة ما أهدى إلى الأفضل قطعة عود هندي أسود يختم كالشمع، وزنتها خمسون منًا لا قيمة لها، وأهدى من قصاع الصين وأوانيها ما يشبه الياقوت حسنًا من الجنس المخرَّم، واتخذ أبو العباس في مصر والقاهرة حمامات وخانات ودكاكين ما يدخل عليه كل يوم جملة من المال، وكان له سبعة أولاد من سبعة أنواع من الجواري: صينية وهندية وحبشية وسرنديبية وصوليانية من جزيرة الصوليّان وهي من أحسن جزائر الهند، زمانها كله ربيع ليس فيها صيف ولا شتاء ولا تسقط أوراق الشجر فيها، وفيها من

نعم الله تعالى ما لا نهاية له، وكان أولاده يتكلمون بألسنة جماعة، وكان بعضهم يأنس بى وأعطانى من العود الفائق ومن ورق الصين أنواعًا زرقًا وحمرًا كلها عليها تصاوير الصين ذهب أحسن من الديباج الرومى رحمة الله عليهم.

ويكون فى جزائر بحر الصين طائر يعرف بالرخ يكون جناحه الواحد عشرة آلاف باع، ذكر ذلك الجاحظ فى كتاب «الحيوان» وكان قد وصل إلى المغرب رجل من التجار ممن سافر إلى الصين فى البحر وأقام بها مدة، ووصل إلى بلدة المغرب بأموال عظيمة، وكان عنده أصل ريشة من جناح الرخ، وكان يسع فمها قربة من الماء، كان الناس يتعجبون من ذلك وكان يعرف الرجل بعبد الرحيم الصينى، وكان يحدث بالعجائب، فذكر أنه سافر فى بحر الصين والقتهم الريح إلى جزيرة عظيمة فخرج إليها أهل السفينة ليأخذوا الماء والحطب، فرأوا فيها قبة عظيمة أعلى من مائة ذراع لها لمعان وبريق فتعجبوا منها، فلما دنوا منها وإذا هى بيضة الرخ فجعلوا يضربونها بالفئوس والخشب والحجارة حتى انشقت عن فرخ الرخ كأنه جبل فتعلقوا بريش جناحه فجروه، فنفض جناحه فبقيت هذه الريشة عند غلمانى تخرج أصلها من لحم جناحه ولم يكمل بعد خلقه.

قال: فقتلوه وحملوا ما قدروا عليه من لحمه ورحلوا، وقد كان بعضهم طبخ فى الجزيرة قدرًا وحركوها ببعض عيدان الحطب الذى طبخوه به وكان فيهم مشايخ فلما أصبحوا رأوا المشايخ قد اسودّت لحاهم ولم يشب بعد ذلك مَن أكل مِن ذلك الطعام فكانوا يقولون: إن ذلك العود الذى حركوا به القدر من شجرة الشباب، والله أعلم.

قال: فلما طلعت الشمس رأوا الرخ قد أقبل فى الهواء كالسحابة العظيمة وفى رجليه قطعة حجر كالبيت العظيم، أكبر من السفينة فلما حاذى السفينة ألقى ذلك الحجر، وكانت السفينة مسرعة بسعة من الأثقال عليها الشراعات، فوقع الحجر فى البحر وسبقت السفينة، ونجانا الله عز وجل.

وفى جزائر الصين والهند الكركدن حيوان طوله مائة ذراع وأقل وأكثر له ثلاثة قرون، قرن بين عينيه وقرنان على أذنيه يطعن الفيل فيأخذه فى قرنه ويهلكه ويبقى بين عينيه مدة، ويبقى ولد الكركدن فى بطن أمه أربع سنين، إذا تم له سنة يخرج رأسه من بطن أمه فيرعى فى الشجر مما يصل إليه.

فإذا تم اربع سنين وقع من بطن أمه، ومر كالبرق حتى لا تدركه أمه مخافة أن تلحسه بلسانها، لأن لسانها فيه شوك كبير غليظ إذا لحست به حيوانًا أزالت لحمه عن عظمه في لحظة واحدة.

وملوك الصين إذا غلبوا أحدًا سلموه إلى الكركدن يلحسه فيبقى عظامه ليس عليه من اللحم شيء.

وفي بلاد الزنج حُمر، كل حمار كأنه الثوب العتابي مخطط أبيض وأسود بخطوط مستوية أحسن سوادًا وأحسن بياضًا من الإبريسم في العتابي البغدادي أو الخراساني، وكان منها حمار بمصر فمات وجلده عندهم محشو بالقطن يخرجونه في يوم الزينة وهو من عجائب الدنيا.

وقرن الكركدن إذا شق طولاً يخرج فيه أنواع من الصور كالطاووس والغزال وأنواع الطير والشجر وصورة بني آدم وغير ذلك من عجائب النقوش، يتخذون منه صفائح على سروج الملوك وفي مناطقهم، وهذا أيضًا من أعجب العجائب.

وقال لي رجل شريف يعرف بالهاروني من ولد هارون الرشيد، إنه كان في بحر الهند فرأى طاووسًا قد خرج من البحر أحسن من طاووس البر وأجمل ألوانًا، فكبرنا لحسنه، وجعل يسبح في البحر وينظر إلى نفسه وينشر أجنحته وينظر إلى ذنبه ساعة ثم غاص في البحر(١).

وفي نيل مصر حيوان يعرف بالتمساح كبير يكون طول جسده ستة أذرع وأقل، وأكثر، وذنبه مثل ذلك، وظهره وبطنه كالسلحفاة ويداه ورجلاه قصار على صورة الضب وفي فمه ثمانون نابًا: أربعون في الفك الأعلى، وأربعون في الفك الأسفل، يتحرك فكه الأعلى وفكه الأسفل، عظامه متصلة بصدره، وليس له دبر، وله فرج يبول ولا يتغوط، وهو شر من كل سبع في الماء، وإذا شبع وامتلأت معدته خرج إلى بعض الجزائر واستقبل الشمس وفتح فاه فيدخل في معدته أنواع من العصافير كالقنبر، في رءوسها عظام كالمناقير فيأكلون ما في معدته، فإذا شبعت خرجت ودخل غيرها حتى لا يبقى في معدته شيء، وربما أطبق

(١) المسعطرف ص ٥٣٧ نقلا عن المؤلف.

فمه على بعضهـا فيطحن في معدته برءوسها التي فيها تلك العظام، حتـى يفتح فاه فيخرج، فسبحان الله العظيم ما أكثر عجائبه، وهو كثير في نيل مصر.

ورأينا أيضًا في نيل مـصر طيرًا أبيض الرأس أسـود الجسد يقـال له عقاب المـاء كأنه النسر في كبـره يطير على النيل ثم يزخ[1] نفسه في الماء فـيخرج وفي مخالبه سـمكة كبيرة يقولون إنها من أطيب السـمك الذي في النيل، فيصعد بهـا في الهواء، فيجتـمع إليه الطير تأكل من سمـكته التي في مخـالبه فيـصيح ذلك العـقاب: الله! فوق الفـوق! بكلام مليح يسمعه الناس من بعد، وهو نوع كثير على نيل مصر.

وأما بحر الخـزر الذي عليه طبرستان ويـمتد إلى ناحية جـرجان، وإلى بلاد الترك إلى الخزر، ويمتد إلى باب الأبواب، فإنه بحر صغـير يقال إن دوره ثلاثمائة فرسخ أو نحوها، ومادته من الأنهار العظام.

وفيه جزائر جماعة، منها: جزيرة تعـمرها الجن يسمع الناس فيها أصواتهم ولا يسكنها شيء من الحيوان، وجـزيرة أيضًا يسكنها الجن مملوءة من أنواع الحيـات والطير يفرخ بين الحيات ولا يضـر فراخ الطير، وكنا نعبر عندها بـالسفن فيخرج أهل السـفينة يأخذون بيض ذلك الطير وفراخه من بين الحيات والثعابين ولا تؤذي أحدًا.

وهناك جزيرة سـوداء كالقيـر، يخرج منها مـاء مر مالح منتن، ويخـرج مع ذلك الماء حجارة مربعة كأنها الصفر الأصفر الجيد، يأخذها الناس مثاقيل للموازين.

وفي مقابلة هذه الجـزيرة على جانب البحر أرض سـوداء كـالقير ينبت فيهـا الحشيش، وفيها أنواع من الوحوش، ويخرج من تلك الأرض السـوداء القير والنفط الأسود والأبيض، وهي قريبـة من باكو، من عـمل شروان، ويظهر في الليل في تـلك الأرض، والجزيرة نار مثل نار الكبريت زرقـاء تشعل ولا تحرق الحشيش، ولا حرارة لهـا، وإذا نزل عليها المطر زادت واشتعلت وعلت، يراها الناس من بعيد، وليـس لها في النهار أثر، يُصطاد الغزلان في تلك الأرض فيـقطعون لحم الصـيد ويجعلونه فـي جلده ويشدون الجلد عليـه على أنبوبة قصب مثقوبة ويدفنون الجلد باللحم في ذلك التراب الأسود، فيغلي ويخرج الزبد من تلك

[1] زخ فلان وثب. وزَخَّ الشيءَ: دفعه.

الانبوبة، كما يخرج من القدر، وإذا نفد الزبد نضج اللحم، فيخرجون ذلك الجلد صحيحًا، واللحم نضجًا حارًا كما يكون في القدر ولا حرارة في تلك الأرض، وهذه من عجائب الدنيا، وتلك النار تشبه نار المعدة.

ويوجد على ساحل البحر وجزائره حجارة مِحكّ الذهب أنواع، وكان لي صديق من أهل أستَرَاباذ يقال له أبو الحسن علي بن عيدان، رجل معروف، دخل غلامه إلى جزيرة من تلك الجزائر التي فيها مِحكّ الذهب فأخرج منها حجارة كثيرة وكان منها حجر واحد عليه مكتوب محمد وعلي بخط أبيض من أحسن الخطوط وبذلت له فيه وزنه من ذهب فلم يفعل.

وينصبُّ في ذلك البحر نهر عظيم يسمى إتل يجيء من فوق بلغار من ناحية الظلمات، يكون مثل الدجلة مائة مرة أو أكثر، يخرج منه إلى البحر سبعون فرعًا، كل فرع كالدجلة ويبقى منه عند سخسين نهر عظيم مشيت عليه في زمان الشتاء وقد جمد حتى صار كالأرض تمشي الخيل والعجل وسائر الدواب عليه، وكان عرضه ألفا وثمانمائة ونيفا وأربعين خطوة، وفيه أنواع من السمك، كل نوع لا يشبه الآخر، السمكة فيها مائة مَنٍّ وأكثر وأقل، وهو طويل له خرطوم فيه فمه صغير يسع الأصبع، ليس فيه شوك وليس له سن ولا له عظم، يخرج من معدته الغراء يحمل إلى جميع الآفاق ويشوى ويطرحون تحته الأرز، كما يكون تحت اللحم الأرز، كما يكون تحت الحمام، فيكون أطيب من كل لحم يؤكل في جميع الدنيا وذلك الأرز الذي يكون تحته أعذب من جميع الأرز الذي يكون تحت الدجاج المسمَّن، ودهنه ولحمه لا زفر فيه ولا رائحة البتَّة، وهو من عجائب الدنيا.

ولما دخلت سخسين سنة خمس وعشرين وخمسمائة، اجتمع إلي الناس من أهل العلم وغيرهم، وفي جملتهم شيخ ضعيف له ثياب خلقة، فألقى عندي سوار ذهب وزنه أربعون مثقالا، وقال: ما أصنع بهذا السوار؟ فقلت لا أدري ما تصنع به لست بصائغ حتى أعلم ما تعمل به.

فقال، اشتريت سمكة بطسوج فوجدت هذا السوار في بطنها، فقلت: عرِّفه، فقال: قد عرَّفته ثلاث سنين أشده في عكازي وأدور به في المساجد والأسواق والبيوت والطرقات وفي دور الأمراء فلا أجد له من يدعيه، فقلت: خذه أنت، فإنه مال حلال وأنفقه على نفسك.

فغضب من كلامى وقال، والله لا ترانى آكله، فقلت لماذا تقول هذا الكلام؟

قال، لأنى رجل صانع أعمل الخفاف وآخذ ما يكفينى، فقلت له: افتد به الأسرى من أيدى الترك، ففرح، فقال، بارك الله عليك، فرجت عنى كربة، فقلت: وليس ها هنا من أهل العلم من يأمرك بمثل هذا؟.

فقال، ها هنا من أهل العلم من يقول أعطنا إياه ونحن نعرف ما نصنع به، وإنما يريدون أكله.

وسمعت ببلغار وهى مدينة فى آخر بلاد الإسلام فى الشمال، هى فوق سقسين بأربعين يومًا، يكون النهار فى الصيف عشرين ساعة، والليل أربع ساعات، ويكون الليل فى الشتاء عشرين ساعة، والنهار أربع ساعات، ويشتد البرد فيها حتى إذا مات لأحد ميت، لا يقدر أن يدفنه ستة أشهر لأن الأرض تصير كالحديد ولا يمكن أن يحفر فيها قبر.

ولقد مات لى بها ولد، وكان فى آخر الشتاء، فلم أقدر على دفنه فبقى فى البيت ثلاثة أشهر حتى أمكن دفنه ويبقى الميت كالحجر.

ويخرج التجار من بلغار إلى ولاية من الكفار يقال لهم إيسوى منه يجىء القندز الجيد، ويحملون إليهم السيوف التى تتخذ فى أذربيجان نصالاً غير مجلية تشترى فى أذربيجان أربعة سيوف بدينار ويسقونها سقيا كثيرًا حتى إذا علقوا النصل بخيط ونُقر، طنّ كثيرًا، فذلك الذى يصلح لهم فيشترون بها القندز، ويذهب أهل إيسوى بتلك السيوف إلى ولاية قريبة من الظلمات مشرفة على البحر الأسود، فيبيعون تلك السيوف منهم بجلود السمور، ويأخذون تلك النصول فيلقونها فى البحر الأسود، فيخرج الله تعالى لهم سمكة كالجبل تتبعها سمكة أكبر منها أضعافًا تريد أكلها فتلقى نفسها قريبًا من البر بحيث لا يمكنها الرجوع، فيدخلون إليها بالسفن ويقطعون من لحمها شهورًا حتى يملئوا بيوتهم ويدخرون ما لا نهاية له من لحمها ودهنها، وربما يكثر ماء البحر فترجع تلك السمكة إلى البحر، وقد ملأت مائة ألف بيت أو أكثر من لحمها.

وإذا كانت السمكة صغيرة يخافون أن تصيح إذا وصلوا فى موضع القطع من لحمها إلى عظامها، يخرجون أولادهم ونساءهم إلى موضع بعيد من البحر حتى لا يسمعوا صوتها.

ولقد حدثني بعض التجار أنهم خرجت إليهم سنة من السنين سمكة عظيمة فثقبوا أذنها وجعلوا فيها الحبال وجروها فانفتحت أذنها وخرج من داخلها جارية حسناء جميلة بيضاء سوداء الشعر، حمراء الخدين عجزاء، من أحسن ما يكون النساء ومن سرتها إلى نصف ساقها جلد أبيض كالثوب خلقة متصل بجسدها يستر قبلها ودبرها كالإزار دائر عليها، فأخذها الرجال إلى البر، وهي تلطم وجهها وتنتف شعرها وتعض ذراعيها وثدييها، وتصيح، وتفعل كما تفعل النساء في الدنيا حتى ماتت في أيديهم، فتبارك الله، ما أكثر عجائبه وخلقه، وما لم نشاهد ولم نسمع به أكثر.

وعلى بلغار ذهب ذو القرنين إلى يأجوج، فيما يقال، والله عز وجل أعلم، وهذا قليل من كثير، وقد اقتصرنا فيه، والله أعلم، وهو القادر على كل شيء لا إله إلا هو سبحانه وتعالى.

الباب الرابع

في صفات الحفائر والقبور وما تضمنته من العظام إلى يوم البعث والنشور

قال الله عز وجل : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ (سورة عبس: ٢١) وقال ﷺ : «القبر أول منزل الآخرة» والقبور، وإن تساوت في الظاهر، فهي مختلفة الأحوال في الباطن، وقال ﷺ «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» فهي للمؤمنين الذين سبقت لهم من الله الحسنى نعيم وراحة، ولمن ختمت له بالشقاوة عذاب ومحنة ونار مؤججة، وقد يظهر الله عز وجل، في الدنيا بعض ما أعده من العذاب وما أعده الله لأوليائه من الكرامة.

وسأنبئك، يا أخي بما شاهدته من كلام الحاكين للفريقين:

أما كرامة الله عز وجل، فإن في بلدي الأندلس، واسم بلدي غرناطة، وهو بلد كبير عظيم، يقال إنه كان في مدينة دقيانوس، ملك أصحاب الكهف.

وبالقرب من المدينة بثلاثة فراسخ مدينة صغيرة يقال لها لوشة إلى جانبها جبل في حضيضه مثل الغار كهف الشمس تزاور عن بابه ذات اليمين وإذا غربت تقرضه ذات الشمال، وفي داخله فتية عددهم سبعة موتى، ستة منهم نيام على ظهورهم، وآخر نائم على يمينه، وعند أرجلهم كلب، لم يسقط من أعضائهم ولا من شعورهم شيء، والناس يغطونهم بأنواع الثياب ويزورونهم من جميع البلاد، وعلى الكهف مسجد ولهم هيبة عظيمة، وعلى الكهف نور عظيم كثير، والدعاء عندهم مستجاب وهذه كرامة الله ظاهرة لعباده في الدنيا، وهذه الكرامة الظاهرة تدل على إكرام الله تعالى لأرواحهم في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ (سورة الواقعة: ٨٨، ٨٩) هذا للمقرب من المؤمنين بعد الموت وقبل القيامة.

وقال ﷺ: «أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر تعلق من ثمار الجنة وتأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش» وهذه كرامة للمؤمنين.

وأما ظهور الهوان والعذاب فى حق الظالمين مما يظهر فى قبورهم من النار والدخان، فقد رأيت فى بلدى، غرناطة، قبر رجل من الامراء، كان أميرًا ظالمًا غاشمًا قاتلاً ظلمًا وعدوانًا، كان اسمه قِراج وأنه لما مات بنى على قبره قبة عظيمة وعمل على قبره الواح من الرخام الأبيض كالعاج حُسنًا فتقطع ذلك الرخام، واسود واحترق واسودت القبة من الدخان الذى كان يخرج من قبره حتى صار كالاتون، ولم يدفن أحد بقربه ميتًا، وكنت أذهب مع الناس إلى قبره للاعتبار ونأخذ من سواد دخان قبره كما يؤخذ من الاتون السواد، وهذا عذاب ظاهر، وأمثاله فى الدنيا كثير.

وقد روى فى الخبر أن عبد الله بن عمر أراد سفرًا فخرج وحده على ناقته فى زمان النبى ﷺ، فعبر على بدر فى الموضع الذى قتل فيه كفار مكة، قال عبد الله بن عمر: فانشقت الأرض وخرج منها آدمى أسود يشتعل نارًا من قرنه إلى قدمه، وفى عنقه سلسلة يجرها خلفه وهو يصيح: يا عبد الله، أسقنى، يا عبد الله أسقنى، فلا أدرى هل عرفنى أم كان ينادى على غير معرفة، فنفرتْ ناقتى منه، وخرج فى إثره رجل فى يده طرف السلسلة وجعل يجره إليه ويقول: يا عبد الله، لا تسقه، هذا عدو الله، أبو جهل، وجعل يضربه بسوطه حتى أدخله القبر، وانطبقت الأرض عليه، ففزع عبد الله بن عمر ورجع عن سفره، وأخبر النبى ﷺ بما رأى، فنهى النبى ﷺ أن يسافر أحد وحده، وقال ﷺ: «الواحد شيطان والاثنان شيطانان والثلاثة ركب».

وقد وصل إلينا بسخسين سنة ثمان وعشرين وخمسمائة شاب من أهل جيلان، ساحل طبرستان اسمه عبد الواحد بن على، وكان من أهل الصلاح والدين، فلزم مسجدًا بالقرب من محلتى التى فيها دارى، فكان مشتغلاً بقراءة القرآن والصوم والعبادة فقلت له:

يا عبد الواحد، لم جئت إلى سخسين وتركت بلدك وأهلك ومالك وأنا أسمع من الغرباء أن أباك من أصحاب الأموال فقال:

يا سيدى، حديثى عجيب، كان لى ابن عم شاب كان يخدم أمير ولايتنا فمات ابن

عمي، فدفناه وحزنت عليه، وأصبحنا يوم ثاني دفنه لزيارة قبره، أنا وإخوته وأقاربه، إذ سمعنا في قبره صوتًا، كأنّ صندوقه يضرب بالخشب، ففرحنا وقلنا كان قد أخذته ريح السكتة فدفناه حيًا، فاجتهدنا حتى أخرجنا صندوقه، ففتحناه، وإذا بالشاب ملقى على ظهره، وكفنه عند سُرّته قد اسود حتى صار كالليل البهيم، وقد خرجت عيناه على خديه، وعلى صدره حية سوداء، مقدار ذراعين في غلظ الساق، وفمها في فمه، وهي تحرك رأسها في فمه، كأنها تلقي في فمه شيئًا، وتضرب بذنبها الصندوق يمينًا وشمالاً، فكان ذلك الصوت صوت ذنبها، فضربها أخو الميت بحربة فولاذ كانت بيده، فزلّت عن الحية ولم تؤثر فيها شيئًا، ودخلت الحية في صدر ذلك الشاب الميت وجميع بني عمه كل من كانت في يده حربة طعن تلك الحية فلم تؤثر فيها شيئًا، فقال رجل من أهل العلم كان معنا: ويحكم! هذه مَلَك الزبانية، قد وكِّل بهذا الميت، فردوا عليه التراب، ففزعت وهربت من بلدي ودخلت سفينة ووصلت إلى هذه البلدة، ولا أرجع إلى بلدي أبدًا، لما رأيته من ابن عمي من العذاب، فأقام عندنا مدة ثم ذهب إلى الحج، وكان من الصالحين رحمة الله عليه.

وقد ذكر الشعبي في كتاب «سير الملوك»: أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ كان يومًا جالسًا بظاهر الكوفة إذ أقبل أعرابي من اليمن فسلم عليه وهناه بالخلافة وقال: يا أمير المؤمنين، جئت إليك من اليمن لتعلمني بما علمك الله مما أنتفع به في ديني.

فقال أمير المؤمنين: من أي بلاد اليمن انت، يا أخا العرب؟

فقال: من حضرموت.

فقال له علي: أتعرف الأحقاف؟.

فقال: لعلك تريد حفيرة هود النبي عليه السلام؟.

فقال علي: نعم!.

فقال: دخلتها يا أمير المؤمنين في حال شبابي، أنا وصاحب لي فنزلنا مائة درجة محفورة في الجبل حتى أفضينا إلى أزج عظيم فيه سرير من الرخام عليه رجل كقطعة الجبل وجسده على هيئة الأحياء، لم يتغير، جميل الوجه مع عظم جسده، وعليه ثياب يمانية، وعند رأسه لوح رخام مكتوب فيه [بسيط]:

هذا النبى التقى المهتدى الهادى

إلى الجبابرة الغاوين من عادِ

أن يعبدوا الله لا يبغوا به بدلا

ويخلعوا كل ذى ضد وأنداد

فخالفوه وردوا قوله سفها

وخوفوه بإرهاب وإيعاد

فأرسل الله ريحًا فى عجاجتها

لها صرير بإبراق وإرعاد

فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم

قد يذنب العبد والمولى بالمرصاد

ففرح به أمير المؤمنين على عليه السلام، وأكرمه وعلمه، وكان يأكل معه ولا يفارقه حتى انصرف، والله أعلم بكل شىء.

حفيرة شداد

وحكى عن الشعبى، رحمه الله: أن فى جبل حضرموت حفائر قبور الملوك المتقدمين من العاديين، وغيرهم من الجبابرة، وأن الله سبحانه وتعالى قد خص ولد عاد بعظم الأجساد، وشدة البأس، وكثرة القوة وسعة الملك، فوجدت حفيرة شداد فى الجبل ينزل إليها فى أدراج محفورة، علو كل درجة عشرة أذرع، وهى أدراج كثيرة، فوصلوا إلى أزج تحت الأرض عظيم فيه سرير من رخام منقوش بالذهب وعليه شداد بن عاد كأنه قطعة من جبل مطليًا بالمُرّ والصبر والمغرة لم يسقط من جسده شىء، وعند رأسه لوح من ذهب فيه مكتوب:

[مجزوء الرمل]:

أنا شداد بن عاد

صاحب القصر العميد

وأخو الشدة والبأ

ساء والعمر المديد

دان أهـــل الأرض طـــرا لـــى
من خـــوف وعـــبـــدى
وقـــهـــرت الناس جـــمـــعـــا
كلـهم لى كـــالعـــبـــيـــد
وأتـى هــود بـرشــــــــــد
فــــــرددنا قـــــول هـود
وعــــــصــــــيـنا وأطـعنا
كـل جــــبـــار عـنـيـــد
فـــأتتنا صـيـــحــــة تهـــوى
مـن الأفق الـبـــعــــيـــد
تـركـــــــتنا مـــــــثـل زرع
وسط بـيـــداء فى حـــصـــيـــد

فأخذوا لوح الذهب وانصرفوا وقد تعجبوا مما رأوا

حفيرة مرتد:

وحكى أيضًا أنهـم وجدوا أزجا عظيـمًا تحت الأرض بدرج فنزلوا فـيه فى درج كثـير تحت الأرض ووجدوا فيه سريرًا من رخام مزخرفًا عليه رجل كأنه قطعة جبل لم يتغير من جسده شيء، على هيئة الأحياء وعند رأسه لوح فيه مكتوب:

[كامل]:

من كـــان يـنكرنى لطـول زمـــانى
بعـــد الـبلى وتغـيـــر الـحـــدثان
فـــأنا ابن شـــداد المــــلك بعـــده
مـــائتـين عـــامـــا بعـدها مـــائتـان
أيام أجنـــاد الصـحـــار فـــجـــاسم
من بالعـــروض إلى ذرى ســفـــوان

وجَديسُنا المستأسدون وطَسْمُنا
أهل الحجاز إلى منصب عمان
فإذا ركبت رأيت حولى منهم
فوق الصوافى ألف ألف عنان
دانت لى الأمم الذين تعاقدوا
من بعد شداد على الطغيان
وأهل المشارق والمغارب إذ بغوا
وتمسكوا بالكفر والعدوان
وجمعت مالاً لا يقادرُ قدره
فكنزته لنوائب الحدثان
فى اللحد تحت شراسه وقراره
أرجو الخلود ولات حين أوان
ولسوف يبدو بعدنا لمعاشر
متواصلين على التقى إخوانِ
يأتيهم ذو المكرُمات محمد
بقوارع تتلى من القرآنِ
يا ليتنى كنت المقدم قبله
فى كل معترك ويوم طعانِ
يا من يرانى ثاويا بحفيرة
عِشْ مُؤمنًا مُتَجنِّبَ الكُفْرانِ

ووجدوا فى جبال مكة أزجا تحت الأرض فيه صورة رجل وامرأة من صخر من أجمل الصور، وعند رأسها لوح رخام مكتوب عليه هذه الأبيات:

[خفيف]:

أنا مأوى الفخار ساف بن عمرو
وربيع الأنام فى كل عصرِ

كنت في جُرهُم أعــد رئيسا
وإذا مـا أمـرت فـالأمـر أمـرى
كـان حكمى عليهم وعلى من
حج ذا البيت فى البرية يجرى
فـهـويت التى ترون أمـامى
فـتـبطلتُـهـا على غـيـر مـهـر
مـن رآنى فـلا يلـم بـائنى
ذات بعـل ولا يلـم بِقَـهْـرِ

وكان ذلك الرجل، ملك جرهم، عشِق نائلة فزنى بها فى الكعبة فمسخهما الله حجرين ليعتبر بهما، فأخرجتهما قريش فجعلوا أساف على الصفا، ونائلة على المروة ليعتبر بهما من رآهما، فلما طال مكثهما عبدوهما[1]، والله أعلم.

وكان شداد بن عاد قد أرسل إلى العراق ابن عمه، الضحاك بن علوان فى عشرة آلاف من الجبابرة، وكان فى جملة عسكره رجل مؤمن يكتم إيمانه، قد آمن بهود عليه السلام، يقال له لام بن عامر وكان الضحاك يعذب الناس بأنواع العذاب ويطبخهم فى القدور، فنهاه لام بن عامر، وقال له: إن هؤلاء الناس هم آدميون مثلنا، وقد فضلنا عليهم بالقوة والمُلْك، والله تعالى لا يرضى بما تفعله بعباده، فغضب الملك الضحاك، وقال له:

أظن أنك على دين هود، وقد خالفت الملك فى دينه، فخاف لام على نفسه، فخرج بأمواله وخدمه وأولاده إلى ناحية الشمال كأنه يطلب الصيد، فغفل عنه الضحاك مدة، وقد ذهب لام بن عامر حتى جاوز أرض الصقالبة وباشغرد، ووصل إلى أرض فى مغرب بلاد الروم، قريبة من البحر الأسود فى موضع كثير الأشجار والنبات والعيون والوحوش طيبة الهواء، ووجد فيها معادن الرصاص الأسود، فاتخذ قبة من الرصاص، كالجبل، وأمر أن يدفن فيها، وكتب على حجر عند رأسه هذه الأبيات بالعربية.

[خفيف]:

أنا لام بن عـامـر المـعـتـاض
من ظلام الإشـراك بالإخـلاصِ

(١) انظر فى ذلك: سيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٢ - ٨٣، والقاموس (أ س ف).

كنت بالله مؤمنًا رب إدريـ
ـس وهود مؤمنًا بالقصاص
قائلاً لا إله إلا هو
ربي الذي إليه مناص
فأراد الضحاك ذو الكفر مني
أن أضاهيه في العمى والحياص
فتركت البلاد طرا وخليت
له عن محلتي وعراصي
وسكنت القفار دهرا طويلاً
خائفًا هاربًا من أهل المعاصي
وبنيت الذي ترون بعون الـ
ـله ذي الطول من صفاح الرصاص
وأمرت البنين أن يدفنوني
جوفها في ملاحفي وقماصي
سوف يأتي بعدي بدهر رسول
من بني هاشم الذرى والمناص
قانتٌ عابد رءوف رحيم
باليتامى والبائسين الخماص
ليتني قد عُمِّرْتُ حتى أراه
كي أنال المنى وفضل الخواص

ثم إن الضحاك سأل عن لام بن عامر، فأخبروه أنه قد ذهب إلى ناحية الشمال بحشمه وأولاده، فأرسل خلفه أميرين مع كل أمير طائفة من الجبارين، فخرج أحدهما قاصداً إلى بلغار، والثاني خرج وذهب إلى باشغرد.

فلما قتل الضحاك ـ قتله أفريدون فيما يقال والله أعلم ـ أقام أولئك الجبابرة في أرض بلغار وفي باشغرد، وقد رأيت قبورهم في باشغرد سن أحدهما طولها أربعة أشبار، وعرض

السن شبران، وقد كان عندي في باشغرد نصف أصل الثنية أخرجت لي من فكه الأسفل والنصف الثاني تَقَطَّع من القدم، فكان عرض نصف الثانية شبرا ووزنها ألف ومائتا مثقال، أنا وزنتها وهي الآن في داري بباشغرد، وكان دور فك ذلك العادي سبعة عشر ذراعًا.

وفي بيت أحد أصحابي في باشغرد عظم عضد أحدهم طوله ثمانية أذرع، وعرض أضلاعهم كل ضلع ثلاثة أشبار كاللوح الرخام، وأخرج لي نصف رسغ يد أحدهم قد تأكل بعضه بالأرض، والذي يلي الرسغ الأسفل صحيح، فكنت لا أقدر أن أرفعه بيد واحدة حتى أرفعه بيدي جميعا.

وفي بلغار أيضًا من عظامهم مثل هذا، وهو كما ذكره الشعبي في «سير الملوك» والله عز وجل، قد قال: ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ﴾ (سورة الأعراف: ٦٩).

ولقد رأيت في بلغار سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل العاديين رجلاً طويلاً كان طوله أكثر من سبعة أذرع، كان يسمى دنقي، كان يأخذ الفرس تحت إبطه، كما يأخذ الإنسان الحَمَل الصغير، وكان من قوته يكسر ساق الفرس بيده ويقطع جلده وأعصابه كما يقطع باقة البقل.

وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعًا يحمل على عجلة وبيضة لرأسه كأنها مرجل، وكان إذا وقع القتال يقاتل بخشبة من شجر البلوط يمسكها كالعصا في يده، لو ضرب بها الفيل قتله، وكان خيِّرًا متواضعًا، كان إذا التقاني يسلِّم عليّ ويرحِّب بي ويكرمني، وكان رأسي لا يصل إلى حِقوه، رحمه الله، ولم يكن ببلغار حمام يمكن أن يدخل فيها إلا حمام واحدة واسعة الأبواب، فكان يدخل فيها، وكان من أعجب بني آدم لم أشاهد قط مثله، وكان له أخت على طوله ورأيتها مرارًا عديدة في بلغار، وقد قال لي في بلغار القاضي يعقوب بن النعمان: إن هذه المرأة الطويلة قتلت زوجها، وكان اسمه آدم، كان من أقوى أهل بلغار، ضمته إليها فكسرت أضلاعه فمات في ساعته.

ومن عجائب القبور والموتى:

أن في أرض مصر بيتًا تحت الأرض فيه رهبان من النصارى، وفي البيت سرير صغير من خشب تحته صبي ميت ملفوف في نطع قديم مسردق مشدود بحبل، وعلى السرير مثل

البطائية الكبيرة من خزف مزجج أخضر، وفى البطائية أنبوب من نحاس فيه فتيل، إذا اشتعل الفتيل بالنار وصار سراجًا، خرج من ذلك الأنبوب الزيت الصافى الحسن الفائق حتى تمتلئ تلك البطائية وينطفئ السراج بكثرة الزيت، فإذا انطفأ لم يخرج من الدهن شىء، وإذا أخرج ذلك الصبى الميت من تحت السرير، لم يخرج من الزيت شىء، والبطائية يرفعها الإنسان فلا يرى تحتها شيئًا ولا موضعًا فيه ثقب، وأولئك الرهبان يبيعونه، ويشتريه الناس منهم ينتفعون به، فيما يقال، وهذا من عجائب الدنيا.

وفى طريق قونيا غار تحت الأرض يسكنه جماعة، وفيه بيت كبير فيه رجال موتى، بعضهم قيام، وبعضهم ركوع وبعضهم سجود، فلا يدرى من أية أمة هم، وعليهم ثياب لا تبلى، والنصارى والمسلمون يتبركون بهم، وأمرهم شائع براهم الناس، ولقد أخبرنى رجل من أهل باشغرد اسمه داود بن على قال:

دخلت ذلك الغار فرأيت هؤلاء الرجال فيه، فجئت إلى رجل منهم راكع، فأخذت بأسفل عنقه، ورفعته حتى استوى قائمًا ثم تركته فعاد راكعًا كما كان، وعندهم بيت كبير فى داخل الغار فيه موتى كثيرة من جملتهم امرأة عندها مهد فيه طفل قد انحنت عليه كأنها ترضعه وهى ميتة لم يسقط من جسدها شىء.

وفى زمان عمر بن الخطاب ﷺ حفر باليمن فى صنعاء حفيرة فوجدوا رجلاً جالسًا عليه ثياب لم تبل، ويده على رأسه كهيئة الأحياء، فأزالوا يده عن رأسه، فسال الدم من جرح كان فى رأسه، فتركوا يده فعادت على الجرح، وانقطع الدم، وفى يده خاتم من فضة مكتوب عليه: عبد الله بن الثامر، فسأل عمر بن الخطاب ﷺ، كعب الأحبار عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا من جملة القوم الذين كانوا آمنوا بالحواريين الذين كانوا على دين عيسى، عليه السلام، وكان له أصحاب فأحرقهم ملك اليمن فى الأخدود الذين ذكرهم الله عز وجل فى القرآن فقال تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ④ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ (سورة البروج: ٤- ٧) وقتل عبد الله بن الثامر ودفن على هيئته، فأمر عمر أن يرد كما كان وأن يخفى مكانه حتى لا ينبشه الأعداء، ففعلوا.

وفى زمان عمر بن الخطاب أيضًا، فتح أبو موسى الأشعرى ﷺ مدينة خراسان،

فدخل مدينة السوس فوجد فى قلعتها بيتًا عليه أقفال محكمة ففتحه، فوجد فيه صندوقًا من رخام فيه رجل ميت صحيح الجسد، فكتب أبو موسى إلى عمر بن الخطاب يخبره بذلك فسأل عمر بن الخطاب كعب الأحبار، فقال له: ذلك، يا أمير المؤمنين، دانيال النبى عليه السلام، كان قد سباه بُختنصر، لما خرب بيت المقدس، وكان عنده حتى رأى بختنصر رؤيا ففزع منها ونسيها فسأل عنها جميع العلماء، فقالوا لا علم لنا بالغيب. وأنت قد نسيتها، فكيف تعرفها نحن.

فقال له دانيال: إن ربى قد أخبرنى رؤياك وتأويلها، فقال بختنصر: فأخبرنى يا دانيال.

فقال: رأيت صنمًا رأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض، أعلاه من ذهب وصدره من فضة، وفخذاه من نحاس، وساقاه من حديد، ورجلاه من خزف ورأيت حجرًا صغيرًا قد نزل من السماء على رأس الصنم، فحطم جميع جسد الصنم، وخلط بعضه ببعض حتى صار ترابًا، وعظم ذلك الحجر حتى ملأ ما بين السماء والأرض.

فقال: صدقت والله يا دانيال، فأخبرنى ما تأويل هذه الرؤيا، فقال:

أما الصنم، فإنه ملككم، معاشر العجم، فالذهب الملوك، والفضة أتباعهم، والنحاس خاصتهم، والحديد جنودهم، والخزف صغارهم، والحجر نبى اسمه محمد، ﷺ، يخرج فى آخر الزمن يحطم ملككم حتى لا يبقى له أثر على وجه الأرض، ويملأ دينه وتملك أمته ما بين السماء والأرض.

فأطلقه بختنصر وأطلق من كان معه من بنى إسرائيل، وأحسن إليه، وكان لا يقطع أمرًا دونه.

ثم إنّ بختنصر رأى أيضًا رؤيا فنسيها، فسأل عنها دانيال، فقال له دانيال:

رأيت شجرة عظيمة لها سبعة أغصان، على كل غصن من أغصانها من أنواع الحيوانات، ما لا يعد ولا يحصى، ثم رأيت ملكًا نزل من السماء، فنزع أغصان تلك الشجرة وتركها جذعًا قائمًا.

فقال له بختنصر: هذه رؤيا، فما تأويلها؟ فقال له دانيال:

أما الشجرة فإنها أنت، وأن الله تعالى سيمسخك على صورة كلّ حيوان كان على تلك الشجرة، وتبقى سبع سنين، وأول ما تمسخ على صورة العقاب، وآخر ما تمسخ على صورة الذبابة، ثم ترجع إلى قصرك ويردك الله على صورتك التى كنت عليها وتؤمن بى ثم تموت من ليلتك.

ففزع وقال بختنصر: يا دانيال، ما علامة المسخ؟ فقال:

إذا رأيت خضرة الريش على ذراعيك، فاستخلف ابنك على مُلْكِكَ حتى تعود بعد سبع سنين.

فلما كان ذات يوم، نظر بختنصر إلى ذراعيه فرأى خضرة الريش تحت الجلد فى ذراعيه، فخرج إلى قومه وأحضر أمراءه وابنه واستخلفه على مملكته وعهد إليه أن لا يفارقه دانيال حتى يعود، فإن دانيال أعلم أهل الدنيا.

ثم انتفض فصار عقابًا، وطار فى الهواء والناس يرونه، فغاب عنهم سبع سنين يمسخ فى سائر الحيوانات حتى مسخ ذبابة، فرجع إلى قصره، وجلس على سريره، وانتفض فصار آدميًا كما كان، فسجد له أهل مملكته، وفرحوا برجوعه، فحمد الله وأثنى عليه، وشهد شهادة الحق، وآمن بدانيال، وآمن معه قومه.

ودخل داره، فمات تلك الليلة، ومات بعد دانيال، فكانوا يستسقون بجسد دانيال، يخرجونه إذا قحطوا.

فتعجب عمر مما حدث به، وكتب إلى أبى موسى أن يدفنه تحت الماء، بحيث لا يصل إلى جسده إنسان، فأمر أبو موسى بنهر السوس فحُوِّل من مكانه، وحُفِرَ فى وسط ذلك النهر، وأطبق على ذلك الصندوق لوح رخام ملصق بالرصاص، وبنى عليه ضريحًا محكمًا بالصخر والنورة، حتى لا يصل إليه الماء، ثم أجرى النهر على قبره.

وبنى بقربه، على جانب الشط فى محاذاة القبر مسجدًا كبيرًا يعرف بمشهد دانيال، وعلى قبر دانيال وحوله أنواع السمك، صغار وكبار، ولهم حد محدود إذا تعدته سمكة وأخذت لم يضر أخذها شيئًا، وإذا أخذ منها سمكة فى حرم دانيال، أصابت الآخذ آفة عظيمة، وفيها سمك كبار كالدواب، قد أنِسُوا بالناس وإذا دخل فى ذلك الماء إنسان، أو

أدخل يده، جاءت السمكة إليه تأخذ الخبز من يده، ويقولون إنها لا تأكل إلا ممن ماله حلال.

قال: فربما يجيء إليهم بعض الظلمة ويلقي إليهم الخبز، فيغوصون في أسفل النهر ولا يتعرضون له بلقمة، ويأتي الرجل الذي ماله حلال برغيف واحد فيتقاتلون على ذلك الرغيف، وقد تركوا أرغفة كثيرة من مال ذلك الظالم.

وفيها سمكة كبيرة كالغنمة الكبيرة في أذنها حلقة ذهب، فسألت عنها لم جعلوا في أذنها حلقة؟ فقالوا: جاء بعض الأمراء وألقى طعامه إلى السمكة، فنفرت ولم تأكل منه شيئًا، فغضب وضرب هذه السمكة بحربة فجفت يده في الحال والوقت، فتاب إلى الله وتضرع إليه وخرج من المظالم، وقال: إن صحّت يدي جعلت في أذن تلك السمكة قرطًا من ذهب، وكانت تلك السمكة مجروحة معروفة بين السمك، فدخل بعدما صحت يده وأمسكوا له السمكة حتى جعل تلك الحلقة في أذنها، وذلك أيضًا من عجائب الله عز وجل.

وذلك السمك لا يفر من الناس، وقد أنس بهم، يزورون مشهد دانيال من جميع المواضع، وعلى ذلك المشهد أوقاف كثيرة، وخادم يخدم الزائرين والغرباء المجاورين، والله أعلم والحمد لله رب العالمين.

وفي المغرب الأعلى، قريبًا من القيروان، قبرُ رجل صالح يقال له محرز المعلم، وكان من الزهاد، مستجاب الدعوة، وكل من مر على قبره يأخذ من ترابه شيئًا، فإذا ركبوا على البحر، وهاج البحر وعصفت الرياح، وكثر الموج، أخرجوا من تراب قبره شيئًا وألقوه في البحر، ودعوا الله تعالى سكن البحر وزالت الرياح وسهل عليهم السفر، وهذا معلوم في أرض المغرب.

وكان رجل من أصحابنا قد أخذ من ترابه وجعله مع ذهب كثير في هِميان[1] كان معه ودخل البحر فأخرج الهميان وهو على جانب السفينة، والشراع يطير بالسفينة كالطير، فطرحه في حجره ونسيه وقام على غفلة فسقط الهميان في البحر، وذهب فصاح الرجل

(١) الهميان: كيس للنفقة يشد في الوسط.

وبكى وانقطع به الإياس ولم يكن له فى السفينة إلا ذلك الهميان، لأن أهل المغرب لا يتجرون فى طريق الحج، وإنما يخرجون بالذهب للنفقة، فأيقن بالفقر وأيس من وجود ذلك الهميان لأنه فى وسط البحر والسفينة مسرعة كالطير الطائر، فلما كان العشى رفعوا دَقَل[1] السفينة، ووجدوا ذلك الهميان بذهبه ملفوفًا على رجل السفينة، فأخذه صاحبه وفرح به وتعجب الناس، وقالوا: هذا ببركة تراب قبر الزاهد، محرز رحمه الله.

وفى وسط مصر مسجد فيه قبر لرجل يقال له عفان، وهو بين طريقين فى ركن وله شبابيك من حديد كل من مرّ به من الناس، يقول: رحمك الله، يا عفان.

فأعجبنى ذلك وسألت علماء مصر عنه، فقالوا: هذا عفان، كان رجلاً خياطًا، فاشترى يومًا غلامًا زنجيًا شابًا فجعل يخدمه، فلما كان يومًا أمره عفان أن يسجر التنور ليخبز فيه، فسجر التنور وشهقت النار فى التنور، ففرح الأسود، فطرب لشهيق النار، ومضى إلى ثياب عفان، التى كان يتجمل بها فألقاها فى التنور وعمامته وكل ما كان له، فرأى عفان ما صنع العبد، فرزقه الله صبرًا وحلمًا، فأخرج العبد وزوده وأعتقه وأشهد على عتقه، ورجع إلى البيت، وقد سمع الناس بما فعل الزنجى، وما فعل عفان فى حقه، فوقع لعفان فى قلوب الناس محبة لما يريده الله تعالى به من الخير، فجاء إليه رجل من كبار التجار، وقال: إن لى بضاعة تصلح للهند، وقد اخترت أن تذهب بها، فما ربحت، فلك كذا وكذا، واتفقا وجهزه ذلك التاجر، وخرج عفان ومعه أموال كثيرة لذلك الرجل، ووصل إلى عدن وأقام بها ما شاء الله تعالى ثم ركب فى البحر وذهب إلى بلاد الهند، وباع ماله الذى كان معه وربح ثم انصرف، ونزل السفينة، فعصفت الريح عليهم فألقت السفينة إلى بلاد الزنج، فخاف التجار على أنفسهم واضطروا إلى الدخول خوفًا من الغرق.

فلما وصلوا إلى البر استقبلهم الزنوج، وجعلوا يأخذون رجلاً رجلاً يحملونه إلى الملك، ويردونه إلى السفينة، ولا يكلمه الملك بشيء حتى أخذوا عفان فأدخل على الملك.

فلما رآه الملك قام إليه وقبل يديه ورجليه ووقف بين يديه، ففزع عفان، فقال الملك

(1) الدَّقَل: خشبة طويلة تشد فى وسط السفينة يُمَدّ عليها الشّراع. وتسميه البحرية: الصارى.

ـرحمان: قل له: ألست عثمان الخياط بمصر الذى اشتريت غلامًا زنجيًا واحرق ثيابك وأعتقته وزودته، ولم تقصر به ولم تؤذه، وقد أساء إليك؟

فقال عفان: نعم أيها الملك، فقال الملك: أنا عبدك الذى أعتقتنى، وأعطانى الله هذه نعمة ببركة إحسانك إلى، وجميع هذه المملكة لك، فاجلس عندى وأنا ملك هؤلاء وأنت سيد علىّ، فحمد الله تعالى عفان، وقال: أيها الملك أنت لى كالولد، وبلادكم لا تصلح لى لكثرة الحر وعدم الجنس.

فأمر الملك له بسفينة وحمّل معه من الأموال ما لا نهاية له ووهب الجميع له وبعث معه من عبيده من يوصله إلى بلاده، وخرج بما لا يدرى نهايته.

وكان عفان رحمه الله لا يرد سائلاً وعمل من الدور والخانات والدكاكين والحمامات كثيرًا، وأوقف الكل على الفقراء المسلمين، وهذه داره جعل فيها هذا المسجد، وحفر فيها قبره، وكان يصلى فى قبره كل ليلة، وجميع أمواله الآن وقف على قبره، فى كل يوم اثنين وخميس وجمعة يحضرون الوكلاء ومعهم الثياب للرجال والصبيان والبنات والدراهم، ويدخلون المسجد ويأتون الفقراء من خارج الشبابيك الحديدية التى جعلت فى حيطان المسجد، فيقسمون على الفقراء أموالاً كثيرة، وكل من عبر عليه يقول: رحمك الله يا عفان، كل يوم وكل ليلة آلاف من النساء والرجال والصبيان.

وكنت أقف عند قبره وأرى كثرة من يدعو له بالرحمة كل ساعة، حتى الصبيان الصغار، أبناء ستين وخمس سنين، فكنت أتعجب مما سهل الله له من الخير حيًا وميتًا، ولقد حدثتُ عنه بمصر رجلاً من أهل المغرب وصل إلى مصر وأراد الحج وأن يجاور بمكة، وكان عنده آلاف من الأموال، فجاء إلى إمام جامع عمرو بن العاص، وكان رجلاً صالحًا من العلماء، فقال له ذلك التاجر:

يا سيدى، جئت إليك فى حاجة لك فيها ثواب ولى فيها معونة، فأسألك أن تقضى حاجتى ولا تردنى، فقال: أفعل إن شاء الله فقال:

إنى أريد الذهاب إلى الحج ومجاورة بيت الله تعالى، وعندى شىء من المال أودعه عندك حتى أرجع من الحج، فإنى أخاف عليه إن كان معى.

فأخذه الفقيه ووضعه فى مخزنه، وذهب صاحب المال إلى الحج وكان للفقيه الإمام بنات كبار ولم يكن له مال يجهزهم به للأكفاء.

فقالت له زوجته: إن هذا المال وديعة عندك تشترى به عقودًا وحليًا لبناتك ونجهزهن به ويدخلن عند أكفائهم وتستريح من همهن، فإذا حصلن عند الأزواج وجاء صاحب المال جمعنا ذلك الحلى والجواهر وجعلناه ذهبًا ويبقيت بناتك عند أزواجهن.

فما زالت به حتى فعل وزوج جميع بناته، وأخرج مع كل واحدة جملة الحلى والجواهر.

فلما كان بعد ثلاث سنين، جاء صاحب المال فدخل على الإمام فى الجامع وسلم عليه ورحب به، وقال له:

وديعتك غدًا تأخذها.

فقال: متى شئت.

فرجع الإمام إلى داره مهمومًا، وقال لأهله:

أما أنا فإنى غدًا فى السحر، أخرج من مصر وأذهب إلى البادية بحيث لا يسمع لى خبر، فإن صاحب المال قد جاء وأنا أستحيى من الفضيحة.

فلما كان بالليل خرج الفقيه وأراد الذهاب على وجهه هاربًا فجاء إلى درب عفان، وهو مغلق، ورأى مسجد عفان مفتوحًا فدخل فى المسجد، فخرج عفان من داره متنكرًا، فدخل المسجد فجلس إليه وسلم عليه وكل واحد منهما لا يعرف صاحبه، فسأله عفان، من هو وما حاله؟ فقال له الإمام، ومن أنت؟ فقال عفان، رجل غريب.

فاطمأن الإمام وقال له: أنا إمام جامع عمرو بن العاص، وقد أصابتنى مصيبة، ووصف له حاله، وقد عزمت أن افر من هذه البلدة ولا أعود إليها خوفًا من العار.

فقال عفان: إن يسهل الله تعالى لى ولك، خير من هذه ثم قام فخرج واغلق باب المسجد من الخارج حتى لا يخرج الإمام، ودخل داره وأخرج على رءوس العبيد أكياسًا فيها من الذهب مثل ما كان عند الإمام وديعة، وقال للإمام:

خذ هذا قرضًا عندك تؤديه إلى صاحب المال إلى أن تبيع أنت حلى بناتك بحيث لا يشعر أحد.

ففرح الإمام ورجع إلى داره والمال يحمل بين يديه، وهو يحمد الله تعالى ويدعو لعفان.

فلما كان بالغداة جاء المودع، صاحب المال، فأعطاه إياه، فقال:

أيها الإمام هذا ليس عين وديعتي، وإن كان الوزن والعدد واحداً، ولكنني لا آخذه حتى تخبرني بما غيّرت مالي وماذا ألجأك إلى هذا.

فأخبره بالقصة على وجهها، فقال المودع:

أيها الشيخ: أما الوديعة فحق الله تعالى، كنت أطلب له مستحقاً، وقد وجدتك، فالمال حقك، ولا شكر إلا لله تعالى.

ففرح الرجل وأهل بيته، وحمدوا الله تعالى، فخرج الإمام وحمل المال إلى عفان وأخبره بالخبر، فقال له عفان: الحمد لله الذى أراح سرك ووسع عليك إن هذا المال لم أخرجه إليك ليرجع إلى، وإنما أخرجه هبة لك لأجل الله تعالى.

فصار الإمام من الأغنياء ببركة عفان، وكم لعفان مثل هذا وأكثر منه، سراً وعلانية!.

وأمر عفان مشهور بمصر وفي جميع المغرب على ألسن المسافرين، و ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة التوبة: ١٢٠) فهو ميت خير من كثير من الملوك الأحياء الذين يبخلون بالدنيا على أنفسهم، ختم الله له ولجميع المسلمين بالخير في الدنيا والآخرة.

ونختم هذا الكتاب بحكاية عجيبة في أمر أمير المؤمنين، على بن أبي طالب، كرم الله وجهه، وهي من أعجب الحكايات في قصة قبره عليه السلام، وظهوره بعد الثلاثين وخمسمائة في ناحية بلخ في قرية كبيرة يقال لها الخير.

رأى جماعة من أهلها الصالحين النبي ﷺ في النوم وهو يقول لهم: ابن عمي، على بن أبي طالب في هذا الموضع، ويشير لهم إلى موضع قريب من القرية، وتواترت هذه الرؤيا عندهم، وكثر من رأى هذه الرؤيا حتى بلغوا أكثر من أربعمائة، كل واحد منهم من الصالحين من قرية الخير، ومن مواضع أخرى، فذهبوا إلى قُماج، صاحب بلخ في زمان سنجر، وحدثوه بما رأوا وما سمعوا من النبي ﷺ، فجمع العلماء وعرض عليهم ما قالوا وما شهدوا به.

فقال العلماء، قال ﷺ: «من رآني رآني حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل بي».

فقال نقيب منهم: أيها الأمير، هذا محال، ورسول الله ﷺ، لا يقول المحال، على ابن أبي طالب رضي الله عنه، قتل بالكوفة، اختلف الناس في قبره، فمنهم من قال: دفن في جامع الكوفة، تحت المنارة، ومنهم من قال: في كوخ زادوة، ومنهم من قال: دفن بالغَرِيّ، وعليه بنى المشهد، فكيف يجيء إلى بلخ، مسيرة ألف فرسخ وأكثر، هذا محال.

فانصرف الناس، فلما كان نصف الليل خرج ذلك النقيب من داره ومعه أولاده وأصحابه، وهو يصيح، إلى أن جاء إلى دار الأمير قماج، وهو يصيح ويستغيث، فأدخل خبره على قماج، فأمر بإدخاله عليه، فقال له، ما أصابك؟.

فقال، أيها الأمير، انظر إلى وجهي وجسدي، فنظروا إليه بالشمع، فإذا بوجهه قد اسود وجميع جسده من كثرة ما ضرب ولطم ولكم، وجعل يبكي.

فقال له الأمير قماج: أيها الشيخ الإمام، من فعل بك هذا؟ قال، كنت نائمًا في بيتي، فجاء إلي جماعة من العلويين لهم غفائر وشعور، وعليهم ثياب بيض، شباب وكهول وشيوخ وصبيان، وقالوا: أنت الذي تكذب رسول الله ﷺ، وتقول إن أمير المؤمنين ليس ها هنا؟ فأخذوني وسحبوني، وهم يسبونني، حتى أوقفوني على قبر مفتوح فرأيت أمير المؤمنين، على بن أبي طالب جالسًا في القبر أبيض الرأس واللحية، وقالوا: أليس هذا أمير المؤمنين على بن أبي طالب؟ ثم جعلوا يضربونني بأرجلهم وأيديهم حتى أيقنت بالموت، فقلت يا أمير المؤمنين ارحمني، فأشار إليهم على عليه السلام بيده، فتركوني، فاستيقظت وجميع أعضائي كأنها مكسرة، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه مما قلته.

فلما رأى الأمير ذلك، خرج بجميع عسكره إلى تلك القرية وحفروا في الموضع الذي أمرهم به رسول الله ﷺ فوجدوا القبر عليه لوحان من رخام، وأمير المؤمنين في داخله، لم يذهب منه شيء البتة، وكفنه صحيح، فرآه الأمير وجميع العلماء، ووجدوا تحت خده لبنة حمراء فيها مكتوب بالأصبع، هذا محب النبي على كرم الله وجهه، فبني عليه مشهد عظيم، أحسن وأبهى من مشهد الغري وتلك اللبنة في كيس من ديباج معلقة في محراب المشهد، وأكثر أولئك الذين رأوا المنام بعد في الحياة، والناس يزورونه من جميع بلاد خراسان وبلخ وسمرقند، ومن عجائب الأمور أن يظهر قبر أمير المؤمنين في ناحية بلخ، ولا يعرف به إلا بعد الخمسمائة.

وقال بعض العلماء :

[كامل مرفل] :

مـا بالغـرىّ سـوى المـقـبـره
والله أعلـم بـالـســـريـره
مـا قـبـر حـيـدر بالعـرا
ق ولا الشـام ولا الجـزيره
الله أودع قـبـره
بالخـيـبر فـي أرض نضـيـره
بخ بخ لـبـلـخ إذا غـدت
بجـوار ملحـده منيـره
رؤيـا رآهـا صـالـح
فى أمـة منهم كـثـيـره
قـال النبى لـهم بـهـا
هذا ابن عـمى فى الحـفـيـره
هـذا عـلـى هـا هـنـا
فلتـجـهـدوا يا أهل خـيـره
فـاحـتـفـروا واجـتـهـدوا
حـتى بدا وجـه الحـظيـره
فـيـهـا أمـيـر المـؤمنين
كـالشمس فى وقـت الظهـيـره
لم يحـتـكم فـيـه البـلى
حـاشـا له من أن يغـيـره
مـتـوسـد مـزبوره
فـيـهـا خطـوط مـسـتـديره
هذا مـحـب مـحـمـد
ووصـيـه دون العـشـيـره

هذا أبو الحسن ابنه
ما زال في الدنيا نصيره
هذا صبى بعد عداته
هذا الذي يدعى وزيره
هذا خصم علومه
مولى البرية ذو البصيرة
هذا أخوه وصهره
وليه هل من نظيره
صلى عليه إلهنا
وأعان شبر شبيره

تم الكتاب

١- مقتبسات للقزويني من تحفة الألباب:

(لم ترد في النسخ التي بين أيدينا أو وردت بصيغ مختلفة).

١- من كتاب عجائب المخلوقات:

تحقيق ونشر وستنفلد ليبسيك ١٨٤٨ في جزأين - جزء ١ صفحة ١٢٤.

بحر المغرب... فصل في جزائره

ذكر أبو حامد الأندلسي في كتابه الذي ألفه لابن هبيرة أن بمجمع البحرين جزيرة فيها منار مبنية من الصخر الصلد الذي لا يعمل فيه الحديد، ولها أساس راسخ، وليس للمنارة باب، وعلى رأس المنارة صورة إنسان ملتحف بثوب كأنه من ذهب ويده ممدودة إلى البحر الأسود، كأنه يشير بأصبعه إلى شيء، وعلو المنارة أكثر من مائة ذراع، وقال غيره إن تلك الصورة طلسم عمله بعض الملوك صيانة لذلك الموضع من إتيان العدو، وأنه مأمون ما دام ذلك الطلسم باقيًا.

ومنها جزيرة تنيس وهي في بحر الروم، ذكر أبو حامد الأندلسي أنها جزيرة عظيمة فيها مدن وقرى كثيرة، ومن عجائبها أنه يخرج إليها من أنواع السمك ما لا يوجد في غيرها من ذلك البحر. ويقيم كل نوع عندهم أيامًا يصطادونه ويأكلونه ثم ينقطع ويجيء نوع آخر، وهكذا، أبدًا، وهي مائة ونيف وثلاثون نوعًا وسيأتي شرحها في فصل البلدان إن شاء الله تعالى.

ومنها ما ذكره صاحب تحفة الغرائب، قال: في بحر الروم جزيرة فيها أشجار وأزهار من شم منها شيئًا ينام لساعته.

ومنها ما ذكره أبو حامد الأندلسي، أن على البحر الأسود من ناحية الأندلس جبلاً عليه كنيسة من الصخر منقورة في الجبل وعليها قبة كبيرة، وعلى القبة غراب مفرد لا يبرح في أعلى القبة، وفي مقابل الكنيسة مسجد يزورونه ويتبركون به، ويقولون إن الدعاء فيه مستجاب، وقد شرط على القسيسين الذين يسكنون تلك الكنيسة استضافة كل مسلم يقصد ذلك المسجد، وكلما وصل أحد إلى ذلك المسجد أدخل الغراب رأسه في رَوْزَنَة[١] على

(١) الروزنة: الكوّة غير النافذة.

أعلى تلك القبة التي على الكنيسة، ويصيح بعدد كل رجل صيحة، فيخرج الرهبان بالطعام إلى أهل المسجد ما يكفيهم، وتعرف تلك الكنيسة بكنيسة الغراب، وزعم أولئك القسيسون أنهم ما زالوا يرون غرابًا على تلك الكنيسة ولا يدرون أين مأكله.

ومنها جزيرة جالطة قال أبو حامد الأندلسي: رأيت في بحر الروم جزيرة يقال لها جالطة مملوءة بالغنم الجبلية مثل الجراد المنتشر لا يمكنها الفرار من الناس، فإذا وصلت المراكب إليها أخذت منها ما لا يحصى، وهي أغنام سمان كبار ونعاج وحملان، وليس في تلك الجزيرة غير الغنم، وفيها عيون وحشيش وشجر وجبال، وهي على طريق الإسكندرية في البحر تقصدها السفن من كل جانب، وذكر أنه لو حملت كل سفينة في ذلك البحر منها لا تفني لكثرة ما فيها.

ومنها من الحيوانات العجيبة سمكة كبيرة إذا نقص الماء بقيت على الطين ولا تزال تضطرب إلى ست ساعات ثم تنسلخ من شدة اضطرابها وتململها، فيظهر لها جناحان من تحت جلدها، فتطير وتتحول إلى البحر، ذكرها أبو حامد الأندلسي.

بحر الخزر... فصل من جزائره

منها ما شاهدها أبو حامد الأندلسي، قال: رأيت في هذا البحر جبلاً من طين أسود كالقير، والبحر محيط به، وفي سنام ذلك الجبل شق طويل يخرج منه الماء، ويخرج مع ذلك الماء مثل صنجة الدانق من الصفر، وربما يكون أكبر وأصغر يحملها الناس إلى الآفاق للتعجب.

ومنها جزيرة الحيات قال أبو حامد: إنها بقرب الجبل الأسود الذي ذكر، وهي جزيرة امتلأت من الحيات، وفيها حشيش كثير لا يقدر أحد أن يضع رجله على الأرض لكثرة ما فيها من الحيات الملتفة بعضها على بعض، وطير البحر يبيض في وسط الحيات، والحيات لا تؤذي بيضه، ورأيت الناس يأخذون في أيديهم القصب القوي والعصا ويزيلون به الحيات من الأرض حتى يضعوا أقدامهم. ويمشوا بين الحيات ويأخذوا بيض الطير وأفراخه، والحيات لا تؤذي أحدًا منهم.

جزيرة الجن قال أبو حامد: هي جزيرة ليس بها أنيس ولا شيء من الوحش، وكانوا يقولون غلب عليها الجن ويُسمع فيها أصوات ولا يجسر أحد أن يقربها.

ومنها جزيرة سياه كوه: قال أبو حامد: هي جزيرة كبيرة بها عيون وأشجار وغياض ومياه عذبة وبهـا دواب وحش يرتفع منهـا الفوه ويحمل إلـى سائر البلدان، وهي تقـارب شرقي البحر، انتقل إليها قوم من الغزية التـرك لاختلاف وقع بين قبائلهم، فانفردوا عنهم إلى هذه الجزيرة.

ومنها جزيرة الغنم: قال سلام الترجمان: رسول الواثق بالله، أمير المؤمنين، إلى ملك الخزر: رأينا جزيرة فيما بين الخزر وبلغار فيها من الأغنام الجبليـة، مثل الجراد لا يمكنها الفرار لكثرتها، فإذا وصلت السفن إلى تلك الجزيرة، اصطادوا منها ما شاء الله، وأنها نعاج وحملان سـمان ما رأيت في تلك الجزيرة حـيوانًا غيرها، وفيـها عيون وحشـيش وأشجار كثيرة، فسبحان من لا تحصى نعمه.

جبل سَبَلان: قال أبو حامـد الأندلسي: هو جبل بأذربيجان، بقـرب مدينة أرْدَبيل، من أعلى جبـال الدنيـا، روى عن رسـول الله ﷺ، أنه قال: «من قـرأ ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ كتب له من الحسـنات بعدد كل ورقة ثلج تسـقط على جبل سبلان، قيل: وما سبلان يا رسول الله؟ قال: «جبل بين أرمينية وأذربيجان، عليه عين من عيون الجنة، وفيه قبر من قبور الأنبياء» وقال أيضًا: «على الجبل عين عظيمة، ماؤهـا جامد لشدة البرد، وحول الجبل عيون حـارة يقصدها المرضى، وفي حضيض الجبل شجر كثير، وبين تلك الشجـر حشيش كثير لا يستطيع شيء من الحيوان أن يأكل من تلك الشجر ورقه، ومتى أكل منها يموت من ساعته» قال: ولقد رأيت من البهائم الخيل والحمر والبقر والغنم تقصدها، فإذا قربت منها فرت، حتى العصافير وكنت أظن أن الجن تحميها.

قال: وفي سـفح الجبل قرية اجتـمعت بقاضـيها، أبي الفرج عـبد الرحمن القصـيري الأردبيلي، فـقال: ما هي إلا عـمل الجن، وذكر أنه بني المسـجـد المعروف فـي القرية، فاحتـاج إلى قواعد الأعمدة للمسـجد فأصبح يومًا وعلى باب المسجد قواعـد من الصخر المنحوت، محكمة الصنع، من أحسن ما يكون.

عين غرناطة: قال أبو حامد الأندلسي: بقـرب غرناطة من أرض الأندلـس، كنيسة عندها عين ماء وشجرة زيتون يخرج الناس إليها ويقصدون تلك الشجرة في يوم معلوم من السنة،

فإذا طلعت الشمس فى ذلك اليوم، فاضت تلك العين بماء كثير ويظهر على الشجرة زهر الزيتون، ثم ينعقد زيتونا ويكبر ويسود فى يومه، ويؤخذ من ذلك الزيتون ما قدر على أخذه، وكذلك من ماء تلك العين بماء للتداوى، قلت: أما حديث شجرة الزيتون فمشهور، وإنما الكلام فى محلها؛ فحدثنى الفقيه سعيد بن عبد الرحمن الأندلسى أنها بشقورة، وقال أحمد بن عمر العذرى، صاحب المسالك والممالك الأندلسية إنها بلورقة، وقال أبو حامد إنها بغرناطة، وكلهم من أهل الأندلس والجمع بين أقاويلهم غير ممكن.

٢- وفى كتاب آثار البلاد وأخبار العباد:

(طبع دار صادر ـ بيروت ١٩٦٩)

جالطة: ص ١٧٥ جزيرة على مرسى طبرقة من أرض إفريقية، طولها ثمانية أميال، وعرضها خمسة أميال، بها ثلاث أعين عذبة الماء، وبها مزارع وآثار قديمة، وبها من الأيل ما لا يحصى، حدثنى الفقيه، سليمان الملتانى، أن بها عنزا كثيرة إنسية توحشت، إذا قصدها قاصد أهوت نفسها من جبل شاهق، ووقفت على قوائمها بخلاف الأيل، فإنها تقف على قرونها.

جيزة: ص ١٨٢ ناحية بمصر، قال أبو حامد الأندلسى: بها طلسم للرمل، وهو صنم، والرمل خلفه، إلى ناحية المغرب، مثل البحر، تأتى به الرياح من أرض المغرب، فإذا وصل إلى ذلك الصنم لا يتعداه، والقرى والرساتيق والمزارع والبساتين بين يدى ذلك الصنم، والرمل العظيم خلفه، وكان مكان ذلك الرمل مدن وقرى علاها الرمل وغطاها، وتظهر رءوس الأعمدة الرخام والجُدُر العظام فى وسط ذلك الرمل، ولا يمكن الوصول إليها.

قال: وكنت أصعد بعض تلال الرمل بالغداة، إذ تلبد الرمل بالطل فى الليل، فرأيت الرمل مثل البحر، لا يتبين آخره البتة، ورأيت مدينة فرعون موسى عليه السلام، وهى مدينة عظيمة بنيانها وقصورها أعظم وأحكم من مدينة فرعون موسى، عليه السلام، والرمل قد غطى أكثرها، فظهرت رءوس الأعمدة التى كانت فى القصور، وهناك سجن موسى عليه السلام فى جوف حائط باب قصر الملك، والحائط منحوت من الصخر، فصعدت فى درج

فى نفس الحائط، كدرجات المنبر، من الصخر إلى غرفة فى نفس الجدار، مشرفة على النيل، وسطح تلك الغرفة وسقفها من ألواح الصخر المنحوت مثل الخشب.

وفى الغرفة باب يفضى إلى بيت عظيم تحت الغرفة، وهو سجن يوسف عليه السلام وعلى جدار الغرفة مكتوب: هاهنا عبر يوسف الرؤيا، حيث قال: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (سورة يوسف: ٤١).

سبتة: (ص ١٠٢) بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب على ساحل البحر فى بر البربر، وهى ضاربة فى البحر داخلة فيه، قال أبو حامد الأندلسى: عندها الصخرة التى وصل إليها موسى، وفتاه، يوشع عليه السلام، فنسيا الحوت المشوى، وكانا قد أكلا نصفه فأحيا الله تعالى، النصف الآخر، فاتخذ سبيله إلى البحر عجبا، وله نسل إلى الآن فى ذلك الموضع، وهى سمكة طولها أكثر من ذراع، وعرضها شبر، وأحد جانبيها صحيح، والجانب الآخر شوك وعظام وغشاء رقيق على أحشائها، وعينها واحدة، ورأسها نصف رأس، فمن رآها من هذا الجانب استقذرها ويحسب أنها مأكولة ميتة، والناس يتبركون بها ويهدونها إلى المحتشمين، واليهود يقددونها ويحملونها إلى البلاد البعيدة للهدايا.

عين شمس: (ص: ٢٢٥) ومن عجائب عين شمس أن يحمل منذ أول الإسلام حجارتها إلى غيرها من البلاد وما تفنى، وبها زرع البلسان وليس فى جميع الدنيا شجرته ويستخرج منها دهنه، قال أبو حامد الأندلسى: بعين شمس تماثيل عملتها الجن لسليمان عليه السلام، بها منارة من صخرة واحدة من الرخام الأحمر منقوط بسواد، ومربعة أكثر من مائة ذراع، على رأسها غشاء من النحاس، والوجه الذى إلى مطلع الشمس من ذلك الغشاء، فيه صورة آدمى على سرير، وعلى يمينه وشماله صورتان كأنهما خادمان، ويترشح من تحت ذلك الغشاء أبدا ماء من تلك المنارة، ينبت الطحلب الأخضر على موضع مسيله من تلك المنارة، وينزل مقدار عشرة أذرع، ولا يتعدى ذلك القدر، ولا ينقطع نهاراً ولا ليلاً.

قال: وكنت أرى لمعان الماء على تلك الصخرة وأتعجب من ذلك، فإنه ليس بقرب تلك المدينة نهر ولا عين، وإنما كان شربهم من الآبار، والله أعلم بالأمور الخفية.

ص ٢٨٤ : الفقرة التى سبق اقتباسها من كتاب عجائب المخلوقات والتى تتعلق بجبل سيلان.

أردبيل ص ٢٩١: ومن عجائبها ما ذكره أبو حامد الأندلسى: قال: رأيت خارج المدينة فى ميدانها حجراً كبيراً كأنه معمول من حديد أكبر من مائتى رطل، إذا احتاج أهل المدينة إلى المطر حملوا ذلك الحجر على عجلة ونقلوه إلى داخل المدينة فينزل المطر ما دام الحجر فيها، فإذا خرج منها سكن المطر.

والفأر بها كثير جداً، بخلاف سائر البلاد، وللسنانير بها عزة، ولها سوق تباع فيه، ينادون عليها: إنها سنورة صيادة مؤدبة، لا هرابة ولا سراقة! ولها تجار وباعة ودلالون، ولها راضة وناس يعرفون.

خوارزم ص ٥٢٦: وبها جبل على ثمانية فراسخ من المدينة، قال أبو حامد الأندلسى: هذا الجبل فيه شعب كبير، وفى الشعب تل عال، وعلى التل شبه مسجد عليه قبة له أربعة أبواب آزاج كبار، ويتراءى للناظر كأن بنيان ذلك المسجد من الذهب ظاهره وباطنه، وحوله ماء محيط بالتل راكد لا مادة له إلا من ماء المطر، والثلج زمان الشتاء، وأن ذلك الماء ينقص ويزيد ذراعاً فى الصيف والشتاء فى رؤية العين والماء ماء عفن نتن عليه طحلب لا يستطيع أحد أن يخوضه، ومن دخل فى ذلك استلبه الماء ولا يظهر أثره البتة، ولا يُدرى أين يذهب، وعرض الماء مقدار مائة ذراع.

غرناطة ص ٥٤٧: وهى نفس قصة الكنيسة التى اقتبسناها سابقاً من «عجائب المخلوقات» والقصة أوردها ابن الوردى بصيغة مختلفة قليلاً.

مدينة النحاس ص ٥٦١: وقال أبو حامد الأندلسى: دور مدينة النحاس أربعون فرسخاً وعلو سورها خمسمائة ذراع، فيما يقال، ولها كتاب مشهور، فى كتابها أن ذا القرنين بناها، والصحيح أن سليمان بن داود عليه السلام، هو الذى بناها، وليس لها باب ظاهر، وأساسها راسخ، وأن موسى بن نصير وصل إليها فى جنوده، وبنى إلى جانب السور بناء عالياً متصلاً به، وجعل عليه سلما من الخشب متصلاً بأعلى السور، وندب إليه من أعطاه مالاً كثيراً، وأن ذلك الرجل لما رأى داخل المدينة ضحك وألقى بنفسه فى داخل المدينة،

وسمعوا من داخل المدينة أصواتًا هائلة، ثم ندب إليه آخر، وأعطاه مالاً كثيرًا وأخذ عليه العهد أن لا يدخل المدينة ويخبرهم بما يرى، فلما صعد وعاين المدينة ضحك وألقى نفسه فيها، وسمعوا من داخلها أصواتًا هائلة أيضًا، ثم ندب إليه رجلاً شجاعًا وشد في وسطه حبلاً قويًا، فلما عاين المدينة ألقى نفسه فيها فجذبوه حتى انقطع الرجل من وسطه، فعلم أن في المدينة جنا، يجرون من علا على السور، فأيسوا منها وتركوها.

وذكر أبو حامد الأندلسي في وصف مدينة النحاس قصيدة منها:

وتَقَبَّلَ الملكوتُ ربي حيثما
ملك البروج بجر في سجلاته

أرض بحسبورة التي دانت بها
جن الفلا والطير في خلواته

والريح يحمله الرخاء فإنما
شهرين مطلعها إلى روحاته

كالطود مبهمة بِأسٍ راسخ
أعيا البرية من جميع جهاته

والقطر سال بها فصاغ مدينة
عجبا يَحَارُ الوهم دون صفاته

حصن النحاس أحاط من جنباتها
وعلى علو السهم في خلواته

فيها ذخائره وجل كنوزه
والله يكلاها إلى ميقاته

في الأرض آيات فلا تك منكرًا
فعجائب الأشياء في آياته

موغان ص ٥٦٤: ولاية واسعة بها قرى ومروج بأذربيجان، على يمين القاصد من أردبيل إلى تبريز... قال أبو حامد الأندلسي: رأيت بها قلعة عظيمة لها رساتيق كثيرة، وقد

هرب عنها أهلهـا لكثرة ما بها من الثعـابين والحيات، وقال رأيت عند اجـتيازي بها شـجاعًا عظيمًا ففزعت منه.

باكُويَه ص ٥٧٨: مدينة بنواحـي دربند بقرب شروان، بهـا عين نفط عظيـمة... من عجـائبهـا ما ذكره أبـو حامد الأندلسي، أن بهـا أرضًا ليس في ترابهـا حرارة كـثيـرة يجدها الإنسان، والناس يصيدون الغـزلان وغيرها ويقطعـون لحمـها ويجعلونهـا في جلودها مع الملح، ومـا شاءوا من الأبازير، ويـأخذون أنبـوبة من القصب الـغليظ النافذ، ويشـدون القصب على جلد الصيد ويدفنونه تحت ذلك التراب ويتركون القـصب خارجًا فتخرج مائية اللحم كلها من القصبة، فإذا نفدت المائية، علموا أن اللحم قد نضج فيخرجونه وقد تهرأ.

زره كران ص ٥٩٥: معناه: صناع الدروع: قـريتان فـوق باب الأبواب على تل عال، وحواليـه قرى ومزارع ورساتيق، وجـبـال وآجام... وحكى أبو حـامـد الأندلسي أنه سمع أهل دربند أنهم جهزوا ذات مرة العسـاكر وذهبوا إلى زره كران، فذهبوا حتى دخلوا القرية، فخرج من تحـت الأرض رجال دخلوا تلك البيوت، فـهبت ريح عاصف، وجاء ثلج كـثير حتى لم يعـرف أحد من تلك العسـاكر صاحبـه، فجعل بعـضهم يقتل بعـضًا، وضلوا عن الطريق وهلك منهم خلق كثير، ونجا بعضهم بعدما عاينوا الهلاك.

بُلْغَار ص ٦١٢: مدينة على ساحل بحر مانيطس، قال أبو حامد الأندلسي: هي مدينة عظيمة مبنية من خشب الصنوبر، وسـورها من خشـب البلوط، وحولها من أمم الترك ما لا يعد ولا يحصى وبين بلغار وقسطنطينية مسيرة شهرين، وبين ملوكهم قتال: يأتي ملك بلغار بجنود كثيرة ويشن الغارات على بلاد قسطنطينية، والمدينة لا تمتنع منهم إلا بالأسوار.

قال أبو حـامد الأندلسي: طول النهـار ببلغار يبلغ عشـرين ساعة، وليـلهم يبقى أربع ساعات، وإذا قصر نهـارها ينعكس ذلك، والبرد عندهم شديد جدًا، ولا يكاد الثلج ينقطع عن أرضهم صيفًا وشتاء.

حكى أبو حامد الأندلسي: أن رجلاً صالحًا دخل بلغـار وكان ملكها وزوجته مريضين يائـسين من الحياة، فقال لهما: إن عالجتكما تدخلان في ديني؟ قالا: نعم! فعالجهما فدخلا في دين الإسلام، وأسلم أهل تلك البلاد معهمـا، فسمع بذلك ملك الخزر فغزاهم بجنود

عظيمة، فقال ذلك الرجل الصالح: لا تخافوا، واحملوا عليهم، وقولوا: الله أكبر! الله أكبر! ففعلوا ذلك وهزموا ملك الخزر، ثم بعد ذلك صالحهم ملك الخزر، وقال: إنى رأيت فى عسكركم رجالاً كباراً على خيل شهب يقتلون أصحابى، فقال الرجل الصالح: أولئك جند الله! وكان اسم ذلك الرجل بلار، فعربوه فقالوا: بلغار، هكذا ذكر القاضى البلغارى فى تاريخ بلغار، وكان من أصحاب إمام الحرمين، وملك بلغار فى ذلك البرد الشديد يغزو الكفار ويسبى نساءهم وذراريهم، وأهل بلغار أصبر الناس على البرد، وسببه أن طعامهم العسل ولحم القندز والسنجاب.

وحكى أبو حامد أنه رأى بأرض البلغار شخصًا من نسل العاديين الذين آمنوا بهود عليه السلام، وهربوا إلى جانب الشمال، كان طوله أكثر من سبعة أذرع، كان الرجل الطويل وهو يصل إلى حقوه، وكان قويًا يأخذ ساق الفرس فيكسرها، ولا يقدر غيره أن يكسرها بالفأس، وكان فى خدمة ملك البلغار، وهو قرّبه واتخذ له درعًا على قدره وبيضة كأنها مرجل كبير، ويأخذ ما معه فى الحروب على عجلة، لأن الجمل ما كان يحمله، ويمشى إلى الحرب على عجلة كيلا يتعب من المشى، ويقاتل رجلاً بخشبة فى يده طويلة لا يقدر الرجل الواحد على حملها، وكانت فى يده كالعصا فى يد أحدنا، والأتراك يهابونه وإذا رأوه مقبلاً إليهم انهزموا، ومع ذلك كان لطيفًا مصلحًا عفيفًا.

وفى كتاب سير الملوك أن القوم الذين آمنوا بهود، عليه السلام، وهربوا إلى بلاد الشمال، وأمعنوا فيها، توجد بأرض بلغار عظامهم.

قال أبو حامد: ورأيت سنا واحدة عرضها شبران وطولها أربعة أشبار، وجمجمة رأسه كالقبة، وتوجد تحت الأرض أسنان مثل أنياب الفيلة، بيض كالثلج، ثقيلة فى الواحدة منها مائتا منّ، لا يدرى لأى حيوان هى، فلعلها سنّ دوابهم، تحمل إلى خوارزم.

والقفل متصلة من بلاد البلغار إلى خوارزم إلا أن طريقهم فى واد من الترك، ويُشترى من تلك، الأسنان فى خوارزم بثمن جيد تتخذ منها الأمشاط والحقاق وغيرهما، كما تتخذ من العاج، بل هى أقوى من العاج، لا تنكسر البتة.

وحكى من الأمور العجيبة أن أهل ويسو ويورا إذا دخلوا بلد البلغار، ولو فى وسط

الصيف يبرد الهواء، ويصير كالشتاء يفسد زروعهم، وهذا مشهور عندهم، لا يخلون أحداً يدخل بلغار من أهل تلك البلاد.

وبها نوع من الطير لم يوجد في غيرها من البلاد، قال أبو حامد: هو طير ذو منقار طويل، يكون منقاره الأعلى مائلاً إلى اليمين ستة أشبار، وإلى اليسار ستة أشبار، مثل لام ألف، وعند الأكل ينطبق، ذكر أن لحمه نافع لحصاة الكلى والمثانة، وإذا وضعت بيضته في الثلج أو الجمد أذابه كالنار.

يورا ص ٦٢٠: بلاد بقرب بحر الظلمات، قال أبو حامد الأندلسي: قال بعض التجار: النهار عندهم في الصيف طويل جداً حتى أن الشمس لا تغيب عنهم مقدار أربعين يوماً، وفي الشتاء ليلهم طويل جداً حتى تغيب الشمس عنهم مقدار أربعين يوماً، والظلمات قريبة منهم، وحكي أن أهل يورا يدخلون تلك الظلمة بالضوء، فيجدون شجرة عظيمة، مثل قرية كبيرة، وعليها حيوان يقولون إنه طير، وأهل يورا ليس لهم زرع ولا ضرع، بل عندهم غياض كثيرة، وأكلهم منها ومن السمك والطريق إليهم في أرض لا يفارقها الثلج أبداً.

وحكي أن أهل بلغار يحملون السيوف من بلاد الإسلام إلى ويسو، وهي سيوف لم يتخذ لها نصال، بل تصل كما تخرج من النار وتسقى، فإن علق السيف بخيط ونقر بأصبع سمع له طنين، فذلك السيف يصلح أن يحمل إلى بلاد يورا ويشتريه أهل يورا بثمن بالغ، ويرمونه في البحر المظلم، فإذا فعلوا ذلك، أخرج الله لهم من البحر سمكة مثل الجمل العظيم، تطردها سمكة أخرى أكبر منها، تريد أكلها، فتهرب منها حتى تقرب من الساحل، فتصير في موضع لا يمكنها الحركة فيه، فتتشبث بالرمل، فيعرف أهل يورا، فيذهبون إليها في المراكب، فكل من ألقى بالسيف يجتمع عليها ويقطع من لحمها، وربما يكثر ماء البحر بالمد، فترجع السمكة إلى البحر بعدما قطع منها من اللحم ما يملأ ألف بيت، وربما تبقى عندهم زمناً طويلاً مؤنتهم فيقطعون منها، وإذا لم يبق في البحر من تلك السيوف لم تخرج لهم السمكة، فيكون عندهم الجدب والقحط.

وحكي أن في بعض السنين خرجت عليهم هذه السمكة، فاجتمع القوم عليها وثقبوا أذنها، وجعلوا فيها حبلا ومدوها إلى الساحل، فانفتحت أذن السمكة وخرجت من داخلها جارية تشبه الآدميين، بيضاء حمراء سوداء الشعر عجزاء من أحسن النساء وجها، فأخذها

أهل يورا، وأخرجوها إلى البر، وهي تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح، وقد خلق الله تعالى في وسطها جلدًا ضعيفًا كالثوب من سرتها إلى ركبتيها تستر عورتها، فبقيت عندهم مدة، وأهل يورا إن لم يلقوا السيف في البحر لا تخرج السمكة، فيجوعون لأن قوتهم من هذا.

٣- مقتبسات ابن الوردي من التحفة:

١- في كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب:

طبع بيروت ١٩٩١م

جزيرة الكنيسة كذا ص ١٤٨:

ذكر أبو حامد الأندلسي أن بهذه الجزيرة جبلاً على شاطئ البحر الأسود عليه كنيسة منقورة في الصخر وعليها قبة عظيمة، وعلى تلك القبة طائر غراب يطير ويحط ولا يزال عليها، ومقابل القبة مسجد يزوره المسلمون ويقولون إن الدعاء فيه مستجاب، وقد شرط على أهل تلك الكنيسة ضيافة من يزور ذلك المسجد من المسلمين، فإذا قدم زائر للمسجد أدخل ذلك الغراب رأسه إلى داخل الكنيسة وصاح صيحات بعدد الزوار، إن كان واحدًا فواحدة، أو اثنين فاثنتين أو عشرة فعشرة، لا يخطئ أبدًا فينزل أهل تلك الكنيسة بالضيافة إليهم على عددهم لا يزيدون ولا ينقصون، وذكر القسيسون أنهم ما زالوا يرون ذلك الغراب ولا يدرون من أين مأكله ومشربه، وتعرف تلك الكنيسة بكنيسة الغراب.

فصل في بحر الخزر ص ١٥٢:

وبهذا البحر عجائب كثيرة، منها ما ذكره أبو حامد عن سلام الترجمان، رسول الخليفة إلى ملك الخزر، قال: لما توجهت من عند الخليفة إليهم أقمت عندهم مدة فرأيتهم يومًا قد اصطادوا سمكة عظيمة فجذبوها بالكلاليب والحبال، فانفتحت أذن السمكة فخرجت منها جارية بيضاء حمراء طويلة الشعر سوداؤه حسنة الصورة طويلة القامة كأنها القمر البدر، وهي تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح، وفي وسطها غشاء لحمي كالثوب الضيق من سرتها إلى ركبتيها كأنه إزار مشدود عليها، فما زالت كذلك حتى ماتت.

فصل في بحر المغرب حوت موسى ص ١٤٩.

قال أبو حامد: رأيت سمكة تعرف بنسل الحوت فى مدينة سبتة، وهو الحوت المشوى الذى صحبه موسى ويوشع حين سافـرا فى طلب الخضر عليه السلام، وهى سمكة طولها ذراع وعرضها شبر، وأحد جانبيها شوك وعظام وجلد رقيق، على أحشائها، ورأسها نصف رأس بعين واحدة، فـمن رآها من هذا الجانب استقـذرها، ونصفها الآخر صـحيح بهيج، والناس يتبركون بها ويهدونها إلى الرؤساء، سيما اليهود.

وسمكة كـأنها قلنسـوة سوداء، قال أبو حـامد: رأيت هذه السمكة وفي جـوفها شـبه المصارين ولا رأس لها ولا عين، ولها مرارة كمـرار البقر سوداء، فإذا صادها أحد تحركت فيسود ما حولها من الماء حتى يبقى كالحبر الدخانى، وأظنه من مرارتها، فيؤخذ ذلك الماء ويكتب به في الورق وهو أحسـن من الحبر وأعظم سواداً وأثبت وجوداً، وأبيض منه.

جبل سيلان ص ١٨٤:

قال أبو حامـد الأندلسى: على رأس هذا الجبل عين عظيـمة، مع غاية ارتفاعـه ماؤها أبرد من الثلج، وكأنهـا شيب بالعسل لشـدة عذوبته، وبجـوف الجبل ماء يخـرج من عين يسلق البيـض لحرارته، يقصـدها الناس لمصـالحهم، وبحضـيض هذا الجبل شـجر كثـير ومراع، وشيء من حشيش لا يتناوله إنسـان ولا حيـوان إلا مات لساعته (وبعد هذا أورد ما ذكره القزوينى عن نفس الحشـيشة التى ذكر أنه رآها وسأل عنها قـاضى المنطقة واسمه أبو الفرج عبد الرحمن الأردبيلى).

٤- مقتبسات أحمد بن على القلقشندى:

١- صبح الأعشى للقلقشندى:

٥/ ٦٢ وقد وصـف مـحمد بن عـبد الرحمن الأقليـشى هذه المملكة الهند فى كـتابه «تحفة الألباب» فقال: «الملك العظيم والعدل الكثير، والنعمة الجزيلة، والسياسة الحسنة، والرضا الدائم، والأمن الذى لا خوف مـعه فى بلاد الهند، وأهل الهند أعلم الناس بأنواع الحكمة والطب والهندسة والصناعات العجيبة، ثم قال: وفي جبالهم وجزائرهم ينبت شجر

العـود والكافـور وجمـيع أنواع الطيـب، كالقـرنفل، والسنبـل، والدار صيني، والـقرفـة والسَّليخة والقاقلة، والكَبابة، والبَسْباسة، وأنواع العقاقير، وعندهم غزال المسك، وسنور الزَّباد، هذا مع ما لهذه المملكة من اتساع الأقطار، وتباعد الأرجاء وتنائي الجوانب.

ملحق الصــــــــور

شـــكل رقـــــم (١)

شـــكل رقـــــم (٦)

فهرس الفهارس

١ - فهرس الآيات القرآنية.

٢ - فهرس الأحاديث النبوية.

٣ - فهرس الأعلام.

٤ - فهرس الأمم والطوائف والجماعات ونحوها.

٥ - فهرس البلدان والأمكنة.

٦ - فهرس الكتب الواردة فى متن الكتاب.

٧ - فهرس المؤلفين.

٨ - فهرس الألفاظ الاصطلاحية.

٩ - فهرس الأشعار.

١٠ - فهرس المصادر.

١١ - فهرس المحتويات.

١ - فهرس الآيات القرآنية

٢ - فهرس الأحاديث النبوية

٣ - فهرس الأعلام

٤ - فهرس الأمم والطوائف والجماعات ونحوها

(أ)

٥ - فهرس البلدان والأمكنة

٦ - فهرس الكتب الواردة في متن الكتاب(١)

(١) وانظر فهرس المؤلفين.

٧ - فهرس المؤلفين[1]

(١) وانظر فهرس الكتب.

٨ - فهرس الألفاظ الاصطلاحية

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

٩ - فهرس الأشعار

١٠ - فهرس المصادر والمراجع

- آثار البلاد وأخبار العباد: القزويني (زكريا بن محمد ت ٦٨٢هـ) دار صادر، بيروت.
- بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس (محمد بن أحمد ت ٩٣٠هـ) مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة ١٩٧٥م.
- الجامع لمفردات الأدوية: ابن البيطار (أبو محمد عبد الله بن أحمد الأندلسي ت ٦٤٦هـ) نسخة مصورة عن طبعة بولاق ١٢٩١هـ، مكتبة المتنبي، القاهرة بدون تاريخ.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ) مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة ١٩٦٧م.
- ديوان المتنبي، دار المعارف بمصر ١٩٩٢م.
- الرسالة المصرية: أبو الصلت (أمية بن عبد العزيز الأندلسي ت ٥٢٨هـ) مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة ١٩٧٢م.
- الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة: ابن عبد الظاهر (محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر ت ٦٩٢هـ) الدار العربية للكتاب، القاهرة ١٩٩٦م.
- السيرة النبوية: ابن هشام (أبو محمد عبد الملك ت ٢١٣هـ) ت الأستاذ السقا وآخرين، المكتبة العلمية، بيروت بدون تاريخ.
- عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات: القزويني (زكريا بن محمد ت ٦٨٢هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- فضائل مصر وأخبارها وخواصها: ابن زولاق (الحسن بن إبراهيم ت ٣٨٧هـ) ت. د. علي عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة ٢٠٠٠م.
- فضائل مصر المحروسة: ابن الكندي (عمر بن محمد، من علماء النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) ت. د. علي عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٩٧م.
- القاموس المحيط: الفيروزابادي (محمد بن يعقوب ت ٨١٧هـ) القاهرة، ١٣٣٠هـ.
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: المتقي الهندي (علاء الدين علي ت ٩٧٥هـ) طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٩م.
- مختصر كتاب البلدان: ابن الفقيه (أحمد بن محمد الهمذاني ت ٣٦٥هـ) ليدن ١٣٠٢هـ

- مروج الذهب: المسعودى (على بن الحسين ت ٣٤٦هـ) المكتبة العصرية، بيروت ١٩٨٨م.
- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار: ابن فضل الله (أحمد بن يحيى ت ٧٤٩هـ) الجزء الأول، طبع دار الكتب.
- المسالك والممالك: ابن خرداذبه (عبيد الله بن أحمد ت ٢٨٠هـ) ليدن ١٨٨٩م.
- المستطرف فى كل فن مستظرف: الأبشيهى (محمد بن أحمد ت ٨٥٠هـ) دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٨م.
- معجم البلدان: ياقوت (ابن عبد الله الرومى ت ٦٢٦هـ) طبعة دار صادر، بيروت ١٩٧٧م
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ) طبعة بولاق ١٢٧٠هـ.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: المقرى (أحمد بن محمد ت ١٠٤١) دار صادر، بيروت ١٩٦٨.
- نهاية الأرب فى فنون الأدب: النويرى (أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٢هـ) النسخة المصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٣م. المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة بدون تاريخ.

١١- فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة